أعلام الثقافة التونسية 20

سوف عبيد

الشاعر الناثر

الجمهورية التونسية
وزارة الشؤون الثقافية
المؤسسة الوطنية لتنمية المهرجانات
والتظاهرات الثقافية والفنية
منتدى الفكر التنويري التونسي

عنوان الكتاب سوف عبيد الشاعر الناثر

المؤلفون * محمد المي * بورازي بعرون
* سونيا عبد اللطيف * منير الوسلاتي
* كوثر بولعابي * محمد بن رجب
* نورالدين بالطيب * صلاح الدين الحمادي
* حافظ محفوظ

السلسلة أعلام الثقافة التونسية ـ عدد 20

عدد الصفحات: 128

اشراف وإعداد محمد الميّ
منتدى الفكر التنويري التونسي

الطبعة الأولى : 2022

ر.د.م.ك : 978-9938-9601-2-9

الناشر المؤسسة الوطنية لتنمية المهرجانات والتظاهرات الثقافية والفنية

سوف عبيد الشاعر الناثر

محمد المي

يعتبر سوف عبيد من الجيل الأدبي الثالث بعد الاستقلال واشتهر بمناصرته لقصيدة النثر واستبسل في الدفاع عنها كخيار جمالي استيتيقطي فتميّز وأخذ لنفسه نهجا مخصوصا ميّزه عن سائر مجايليه .

في قصائده توظيف للتراث وتضمين لأساطير تونسية وحكايات شعبية متداولة ونفسه يتجلى في المطولات وهو إلى ذلك باحث وناقد وقد تجاوزت مسيرته الإبداعية نصف القرن من العطاء وراكم إنتاجا أدبيا متنوعا وهو ما دعاني إلى التفكير في إدراجه ضمن سلسلة ندواتنا الفكرية التي نقيمها لغاية تكريم أعلام الثقافة التونسية وقد تجاوزت العشرين ندوة وهذا الكتاب عدد 20 وبذلك قد وفّرنا مدونة اعتنت بالأدباء التونسيين وذكرت بالمنسيين منهم وأحيت الشعور بالاعتزاز والفخر لدى الأحياء لأننا عملنا على المراوحة بين من توفاهم الله وبين الأحياء وقد أصدرنا عشرة كتب عن الذين فاروقنا : علي البلهوان وجلال الدين النقاش ومحمد الصالح المهيدي والبشير المجدوب وأبو القاسم محمد كرو وصلاح الدين بوجاه والطاهر الشريعة وزين العابدين السنوسي وتوفيق بوغدير وحسن الزمرلي .

وعشرة كتب عن الأحياء : نافلة ذهب وحسن نصر ومنصف المزغني ومحمد الصالح بن عمر وعروسية النالوتي ومنصف

الوهايبي ومحمود بلعيد ومحمد الغزي ومسعودة بوبكر وسوف عبيد .

هذا التوازي مقصود منذ البداية وسنواصل على النهج نفسه حتى لا نقتل الأحياء بالأموات ولا ننسى من توفاهم الله وقد قدموا لثقافتنا وتراثنا .

في هذه الندوات شارك ما يزيد عن المائتي ناقد بين أديب وجامعي وعصامي من النساء والرجال وأتحنا الفرصة لمختلف المثقفين للإسهام في هذا المشروع الذي نهدف من خلاله إلى تنوير العقول بالتعريف بأعلام ثقافتنا التونسية نحو إنشاء موسوعة معرفية / ثقافية جامعة تبيّن حجم الجهود التي قدّمت في تونس وعدد الرجال والنساء الذين أسهموا في حركة التنوير والبناء الثقافي والحضاري.

آمالنا عريضة وطموحنا كبير ونعرف أن هناك من الأحياء من ينتظر الدور ومن الأموات من يهمس ألينا بأن لا ننسى دوره وحجمه لذلك فان المسؤولية جسيمة في تقديرنا ولكنها ليست مستحيلة ما دامت الإرادة متوفرة فشكرا لوزارة الثقافة التي آمنت بهذا المشروع وشجعته ودعّمته وحتما ستبقى الكتب التي طبعت ونشرت بعد أن يزول كل شيء ويذهب الكل ولكن آثارنا تدلّ علينا وسيقال حتما لقد بذلت الجهود وتوفرت العزائم ولن يقال إننا واجهنا العطاء بالجحود والنكران .

محمد المي

منتدى الفكر التنويري التونسي

ملاحظات حول خصائص الشّعر التّونسي الحديث في «الضّفّة الثّالثة قبسات من الشّعر التّونسي والعربي» للشّاعر والنّاقد سوف عبيد[1]

بوراوي بعرون
عضو اتّحاد الكتّاب التّونسيّين
شاعر وناقد

«الضّفّة الثّالثة قبسات من الشّعر التّونسيّ والعربيّ « مجموعة مقالات للشّاعر والنّاقد الأستاذ سوف عبيد جمّعها في هذا الكتاب وحرص على طباعتها مساهمة منه في التّعريف بالأدب العربيّ عامّة وبالأدب التّونسيّ خاصّة وبالشّعر منه بصفة أخصّ. وكعادته اشتغل سوف عبيد على هذا الشّعر بشغف واهتمام كبيرين. فأعمل النّقدَ فيه بتدبّر، وأعطى للنّصوص المدروسة ما تستحقّه من عناية وتفحّص ماسحا الفترة الممتدّة من بداية القرن العشرين حتّى العشريّة الثّانية من القرن الحالي. ممعنا النّظر كذلك في إبداعات سابقة في الأدب العربيّ القديم ومنه الشّعر الأندلسيّ. في هذا الكتاب انكبّ سوف عبيد على تصفّح المدوّنة الشّعريّة التّونسيّة بالخصوص، وتمكّن من إنتاج معرفة نقديّة بها، فيها إثراء بيّن للمكتبة الأدبيّة في تونس. ولقد تمكّن من إنجاز ذلك بفضل تعلّقه الكبير حدّ الهيام بهذا الشّعر، وبفضل إلمامه الواسع بأكوانه وفضاءاته وطقوسه المختلفة،

(1) نصّ الورقة التي تشرّفت بصياغتها لتقديم « الضّفّة الثّالثة، قبسات من الشّعر التّونسي والعربي « للشّاعر والنّاقد سوف عبيد صص07-12.

مستفيدا من قراءاته السّابقة في المدوّنة ذات العلاقة، وبفضل ثقافته النّقديّة العميقة واعتماده مقاربات متنوّعة فيها تقاطعات واضحة مع المقاربات النّقديّة ذائعة الصّيت في الكتابات النّقديّة اليوم. ويظهر ذلك جليّا عند الاطّلاع على المقالات الواردة في هذا الكتاب في المستويات المختلفة المشار إليها أعلاه (مستوى الاهتمام بالموضوع، مستوى سعة الاطّلاع عليه، ومستوى وضوح منهجيّات القراءة).

في اهتمام النّاقد بالشّعر التّونسيّ الحديث

يتضمّن الكتاب الذي بين أيدينا « الضّفّة الثّالثة قبسات من الشّعر التّونسيّ والعربيّ» مقالات عدّة للأستاذ سوف عبيد في الشّعر التّونسيّ والعربيّ، ولئن اهتمّت بعض المقالات بالشّعراء العرب أمثال أدونيس «الأبعاد الحضاريّة واللّغويّة في قصيدة « قبر من أجل نيويورك لأدونيس»[2] وسركون بولس «نافذة على قصائد سركون بولس»[3] أو اهتمّت ببعض التّيمات في هذا الشّعر مثال: «النّخلة في الشّعر العربي»[4] فإنّ الاهتمام الأكبر للمقالات في هذا الكتاب توجّه صوب الشّعر التّونسيّ على عادة سوف عبيد. لقد دأب النّاقد على الاحتفاء بالأدب التّونسيّ، والاهتمام الكبير بالأدباء التّونسيّين عامّة وبالشّعراء منهم بالخصوص. ويشير سوف عبيد في هذا المؤَلَّف إلى أهميّة الاحتفاء بالشّعراء التّونسيّين وتكريمهم خلال حياتهم حيث يقول: «وإنّ المتتبّع لمسيرة الكثير من أعلام الأدباء ورجال القلم في تونس يقف على خيط رابط بينهم جميعا يتمثّل في شعورهم بالغبن والجحود ... « مستحضرا بيتي علي الدّوعاجي الشّهيرين: « عاش يتمنّى في عنبه / ك مات علقولو عنقود ... ما

(2) سوف عبيد، «الضّفّة الثّالثة، قبسات من الشّعر التّونسي والعربي»، دار الاتّحاد للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، تونس، 2019، صص355-361

(3) المصدر نفسه، صص351-353.

(4) المصدر نفسه، صص137-145.

يسعد فنّان الغلبه / إلاّ من تحت اللّحود». يشير النّاقد إلى ذلك في مقالة بعنوان « في تكريم الشّاعر نور الدّين بالطّيّب».[5] بمناسبة الاحتفاء به من قبل جمعيّة ابن عرفة بتاريخ 10 فيفري 2018. ويحرص سوف عبيد على الاحتفاء بالشّعراء التّونسيّين من مختلف الأجيال، حيث نجده في هذه المقالات يواصل الاهتمام بالشّابّي الذي مافتئ يشتغل على نصوصه الصّادرة في ديوان أغاني الحياة وغيرها، ويحظى الشّابي بأربع مقالات في هذا الكتاب منها المقالة بعنوان « التّصوّف لدى أبي القاسم الشّابّي»[6] والمقالة بعنوان «أشعار أبي القاسم الشّابّي في غير ديوان أغاني الحياة»[7] كما أولى شاعرنا اهتماما لافتا بمصطفى خريّف في مقالة بعنوان «إرادة التّجديد لدى مصطفى خريّف، قصيد «بين جبل وبحر» نموذجا[8]. وحظي محمّد العروسي المطوي باهتمام شاعرنا في مقالة بعنوان «من عزف الحياة إلى نشيد الموت قراءة في شعر محمّد العروسي المطويّ»[9]. كما نال الميداني بن صالح حظّه من اهتمام شاعرنا في مقالة بعنوان «من القرط ... إلى النّخلة مقاربة في شعر الميداني بن صالح»[10]. ومن مجايليه اهتمّ سوف عبيد بالهاشمي بلّوزة والمنصف المزغنّي والمنصف الوهايبي ومحمّد الصغيّر أولاد أحمد وحسين العوري وعبد العزيز الحاجّي وغيرهم ... كما أولى الشّاعر والنّاقد سوف عبيد اهتمامه بشعراء التّسعينات على غرار صلاح الدّين الحمادي وعادل معيزي ونورالدّين بالطّيّب ومحمّد البقلوطي ... ولم ينس الشّعراء الذين ظهروا على ساحة

(5) المصدر نفسه، صص337-339.
(6) المصدر نفسه، صص27-34.
(7) المصدر نفسه، صص19-25.
(8) المصدر نفسه،صص45-58.
(9) المصدر نفسه، صص169-174.
(10) المصدر نفسه، صص175-184.

الإبداع في العشريّتين الأوليين من هذا القرن من خلال إصداراتهم أمثال المختار بن اسماعيل وبوراروي بعرون وماجدة الظّاهري وزهرة حوّاشي وكتّاب الومضة الشّعريّة في العشريّة الثّانية من القرن الحالي أمثال: الحبيب المرموش وسيرين بن حميدة وسونيا عبد اللّطيف.

في سعة اطّلاع النّاقد على الشّعر التّونسيّ الحديث

يؤكّد هذا الكتاب « الضّفّة الثّالثة قبسات من الشّعر التّونسيّ والعربيّ « أنّ الشّاعر والنّاقد سوف عبيد على اطّلاع واسع بالشّعر التّونسيّ الحديث منذ بدايات القرن الماضي إلى الآن. يظهر ذلك جليّا في المقالات ذات العلاقة بمدوّنة الشّابي ونذكر منها مثلا البحث بعنوان: « أشعار أبي القاسم الشّابي في غير ديوان أغاني الحياة « والمقالة بعنوان « التّصوّف لدى أبي القاسم الشّابي «حيث يظهر في المقالة الأولى المجهود البحثيّ الذي بذله النّاقد للوقوف على المسيرة التّاريخيّة التي عرفتها طباعة أشعار الشّابي من إضافة قصائد للمدوّنة أحيانا أو أبيات للقصيد الواحد أو حذف مثل ذلك أحيانا أخرى، وما بذله من مجهود لتجميع القصائد الأخرى ذات الطّابع «النّثري» حسب تقديره وتحقيقها ثمّ إصدارها بالعنوان الذي كان يرغب الشّابي في منحه لها « صفحات من كتاب الوجود» مع إضافة عبارة قصائد نثريّة من قبل النّاقد. وفي المقالة الثّانيةّ رصد النّاقد مواطن التّصوّف في شعر الشّابي وحرص على إظهار ذلك في علاقة برؤية الشّابي الشّعريّة التي تختلف في عمقها حسب رأيه عن الرّؤية الشّعريّة القديمة بما في ذلك شعر المتنبّي. حيث يوضّح النّاقد ترفّع الشّابي عن المدح مثلا واهتمامه بما هو أعمق في تأثّر واضح بالغزالي والتّبريزي وابن عربي وغيرهم ... كما يظهر الاطّلاع الواسع للنّاقد على المدوّنة الشّعريّة للنّصف الثّاني من القرن العشرين مع شعراء الخمسينات

والستّينات أمثال محمّد العروسي المطوي والميداني بن صالح، نذكر مثلا المقالة بعنوان: « من عزف الحياة إلى نشيد الموت قراءة في شعر محمّد العروسي المطويّ « حيث يظهر الاطّلاع العميق من خلال ذكر التّفاصيل الصّغيرة في تجربة المطويّ الأدبيّة التي لم تكن شّعريّة بالأساس مقارنة بكتاباته الأدبيّة الأخرى، إلاّ أنّ الشّعر في مجاميعه الثّلاث المنشورة يحظى بالاهتمام الكبير فهو من الرّوّاد في كتابة شعر التّفعيلة في تونس في مواضيع مختلفة منها الوطنيّ والوجداني الذّاتي في المقالة ذات العلاقة ... ومن مدوّنتيْ السّبعينات والثّمانينات يظهر اطّلاع النّاقد لافتا في نصوص الشّعراء من المجايلين له أمثال المزغنّي والوهايبي والهاشمي بلوزة وأولاد أحمد وعبد العزيز الحاجّي وغيرهم ... ونشير في هذا الكتاب إلى المقالة بعنوان: « بين الحفيد والجدّ في « يوميّات برجوازي صغير «لمنصف الوهايبي[11]»حيث نلمس دقّة الاطّلاع في هذه القراءة من خلال إمساك النّاقد بأهمّ الخصائص الفنيّة لهذه القصيدة ملتقطا ما يميّزها من توظيف للتّصوير وتوظيف للتّسريد / الحكي وللومضات الاسترداديّة ذات الملامح السينمائيّة، مع تنزيل القصيدة في مجموعتها « ألواح « وهي باكورة إصدارات الشّاعر الوهايبي. ويرصد النّاقد شعر التّسعينات مع شعراء سرعان ما لفتوا الأنظار إلى كتاباتهم المتفرّدة أمثال عادل معيزي وصلاح الدّين الحمادي ونورالدّين بالطّيّب وغيرهم. نشير في هذا السّياق إلى المقالة بعنوان « شاعريّة العين قراءة في قصيد «وادي اللّيل» لصلاح الدّين الحمادي»[12]حيث يظهر الاطّلاع الدّقيق على نصوص المجموعة التي تحمل نفس عنوان القصيدة موضوع القراءة، كما يشير سوف عبيد إلى انتماء الشّاعر إلى موجة شعراء التّسعينات

(11) المصدر نفسه، صص241-245.
(12) المصدر نفسه، صص255-262.

في تونس، وهي معطيات تؤكّد إلمام النّاقد الكبير بالشّعراء الذين يهتمّ بأعمالهم. كما لم ينس سوف عبيد أصحاب الإصدارات الجديدة من المنتمين إلى العشريّتين الأوليين من القرن الجديد، أمثال عبد السّلام لخضر وسونيا عبد اللّطيف وزهرة حوّاشي وغيرهم. ونشير على سبيل المثال إلى المقالة بعنوان: «الشّاعرة زهرة حوّاشي ... شاعرة بثلاثة ألسن»[13] ويظهر في هذه المقالة إلمام النّاقد بمجاميع الشّاعرة الثّلاث التي أصدرتها دفعة واحدة، مع الإلمام بمكوّنات كلّ مجموعة منها التي ضمّت ثلاثة أقسام (3 في 1) قسم بالعربيّة الفصحى وقسم باللّهجة المحكيّة وقسم ثالث بالفرنسيّة.

في خصائص القراءة عند النّاقد

يقرأ النّاقد سوف عبيد الشّعر التّونسيّ في هذا الكتاب بتروّ وعمق ظاهرين، ففي مختلف المقالات الوارد ة في الكتاب ينطلق النّاقد من معرفة دقيقة بخصائص المقروء سواء كان مجموعة شعريّة أو تيمة شعريّة تدور في فلكها نصوص مختلفة أو قصيدة واحدة. في مختلف هذه المقالات يسعى سوف عبيد إلى تأصيل النّصّ في علاقته بالشّعر العربيّ أو بالحقبة التّاريخيّة التي ينتمي إليها محيلا إلى اللّسان العربيّ كلّما اقتضى الأمر ذلك، محدثا مقارنات بين نصوص مختلفة ذات علاقة بتيمة ما مثلا. ويعتمد سوف عبيد في قراءاته في هذا الكتاب على جملة من المبادئ / المنطلقات تساعده على رصد الشّعريّة في النّصوص بدراية وعن وعي ووفق تصوّر منهجيّ واضح يتمثّل في النّقاط التّالية: 1 / رؤية شعريّة خاصّة تقوم على التّفاعل مع التّراث الشّعريّ بما يخدم التّجديد دون قطيعة كلّيّة مع الموروث أو تقديس أعمى له ودون رفض للجديد أو انغماس غير مدروس فيه. 2 / القبول بمختلف أشكال

(13) المصدر نفسه، صص305-311.

الكتابة الشّعريّة ومضامينها ، 3 / الاهتمام بالمبنى والمعنى معا دون تركيز مبالغ فيه على الشّكل على حساب العناصر الأخرى. 4/ اعتماد مقاربات مختلفة ومتآلفة دون التّقيّد بمقاربة دون سواها. 5 / اعتماد تمشّ تحليليّ ينطلق من النّصّ / الكلّ، ويمرّ بالتّحليل مع تركيز على تيمة ما (الماء في نصّ المختار اللّغماني مثلا) أو منحًى ما (التّصوّف عند الشّابي ...)، نذكر مثالا على ذلك المقالة بعنوان « قراءة في . غميس اليمام . لعبد العزيز الحاجّي»[14] حيث يشير النّاقد إلى أهمّيّة توظيف المكان في الكتابة الشّعريّة (وادي الفول، الفؤول حسب الشّاعر) مسقط رأس الحاجّي، بادئا المقالة بإشارة إلى أنّ المجاميع الشّعريّة الحديثة تتشابه في أساليبها واهتماماتها حتّى تكاد تتناسخ، ليبيّن تفرّد المجموعة محلّ القراءة بالتّجديد والطّرافة (الاحتفاء بالمكان / فضاء الطّفولة) ويتطرّق إلى نماذج من قصائد قصيرة تتميّز بالخصوصيّة التي تجعل من الشّعر في تجربة الحاجّي في تطوّر لافت من مجموعة إلى أخرى حسب تقديره. وفي المقالة بعنوان «قراءة في قصيدة» وصيّة الرّغيف «لصالحة الجلاصي»[15] يظهر التّمشّي القرائيّ بوضوح. يبدأ بالتّأطير العامّ، استلهام الشّعر الحديث للفنون الأخرى المختلفة، مع إشارة إلى مكانة العنوان في الشّعر الحديث، ثمّ يمرّ إلى تقديم النّصّ والتّركيز على خاصّيّته المتمثّلة في موضوعه وهو حسب رأيه وصف مشهد لقاء بين الشّاعرة / الزّائرة وامرأة عراقيّة تبيع الرّغيف على قارعة الطّريق زمن الحرب، لينتقل في ما بعد إلى التّحليل (الاشتغال على المشاهد الفرعيّة الثّلاثة) والانتهاء إلى طرح تساؤل يتعلّق

(14) المصدر نفسه، صص247-248.
(15) المصدر نفسه، صص285-288.

بالعلاقة بين عنوان النّصّ والمتن . ليستخلص أنّ القصيدة بديعة وأنّ الشاعرة تسير في طريق التّجديد بخطًى ثابتة.

ختـــــاما

القراءة المتأنّيّة في «الضّفّة الثّالثة قبسات من الشّعر التّونسيّ والعربيّ» متعبة وممتعة وهي كذلك شاقّة وشيّقة، وهي بملامحها تلك، فسحة في ملكوت الشّعر العربيّ بصفة عامّة والشّعر التّونسيّ بالخصوص. فسحة تجعل القارئ مطّلعا على أهمّ ما يميّز الكتابة الشّعريّة الحديثة في علاقتها بما سبقها في مختلف العصور والبلدان وعلاقتها بلحظتها الرّاهنة في بعديها العربيّ والكونيّ. وإذ يظهر التّعلّق الكبير للنّاقد سوف عبيد بالشّعر التّونسيّ واطّلاعه الواسع على تفاصيل التّفاصيل فيه وتملّكه لبوصلة واضحة للقراءة والتّحليل وإعمال النّظر فيه، وإذ يظهر كذلك المجهود الكبير المبذول من قبله في البحث والتّنقيب والتّحقيق فإنّنا لا نمتلك إلاّ أن نهنّئه بهذا العمل الأدبيّ الجديد ونؤكّد على أهمّيّة الاطّلاع عليه والاستفادة منه. وإنّه لعمل جادّ يستحقّ المزيد من القراءة والتّحليل وإعمال النّظر، ويفتح الآفاق رحبة لمزيد الاهتمام بالشّعر التّونسيّ قراءة وتحليلا ونقدا ونشرا في زمن يحتاج فيه هذا الشّعر للعناية والتّشجيع أكثر فأكثر.

حضور المرأة
في أعمال سوف عبيد الشّعريّة

سونيا عبد اللطيف

الأدب رحلة لا تنتهي، وكلّ ينظر له من زاويته وبطريقته، هنالك من يعتبره متعة ونشوة، ومنهم من يراه لعنة، وآخرون يقولون عنه مأساة، ولولا الآلام والمعاناة لما كتب الإنسان حرفا ولما قاوم بالكتابة ولما أنتج شعرا، ولا قصّة، ولا رواية، أو خاطرة، أو مقالة...

كتابات سوف عبيد تدخل في باب الحداثة وما بعد الحداثة، ويمكن اعتباره شاعر التفاصيل لاهتمامه بالجزئيّات والسير الذّاتي اليوم والغيريّ ،تتميّز نصوصه بالتداخل والتّقاطع بين ما يسمى الوعي الخارق واللاوعي، والواقع الملموس والتخييلي واعتمادها المجاز وجمال الصّور الشعرية المكثّفة وتواتر الأفعال والحركات وقدرة الذّاكرة على استرجاع اللّحظات البارقة الخاطفة والحبكة في توظيف الأسطورة والتراث إلى جانب حلول الطّرافة والبداهة.

فهل تؤوّل كتابات سوف عبيد بسهولة؟ وهل تُقرَأُ من زاوية موحّدة وبنفس الطّريقة أم بحسب اجتهاد وثقافة المتلقّي؟ لقد قرأت الديوان ما يزيد عن العشرة مرات، لكنّي لا أدرك الضفاف لغزارة المعاني ولغرق شعره في المجازات.

سأتطرّق في هذا المقال لموضوع المرأة المجاز في شعر سوف عبيد، كيف تناولها؟ وما مظاهر تأثيرها عليه في إبداعاته ؟

المرأة حاضرة وبكثافة في كتاباته... هي الوطن، الأرض، الهويّة، الثّقافة، هي الأم، الأخت، الزّوجة، البنت، هي الحبيبة،

العشيقة، والنّشوة والسّعادة، هي الشّجرة والوردة، صوّرها شمسا، نجما، قمرا، جعلها مهرة غزالا، قطّة... هي التي لا تحلو حياة من دونها.

وذِكْرُ المرأة في نصوصه يتعدّد ويتنوّع، يختلف باختلاف الصّفة والمكانة التي تحتلّها في الواقع وبحسب العلاقة التي تربطه بها. وعند استحضارها يستند على قوّة الذّاكرة في استرجاع الذكريات... يعطي لشخصياته أسماء، يعدّد ميزاتهم، يستقرئ أفكارهم، يصف مشاعرهم، يتحدّث على لسانهم، يكون التّغزّل بالمرأة مرّة صريحا ومرّة مُتخفّيا أخرى يتّكئ على المجاز والتّضمين ويُكثّف من الصّور الشعرية لخدمة غرضه وفكرته، ولتوثيق لحظة بارقة شّدت انتباهه، رسخت بذاكرته، فيعمد لصياغتها بأسلوب مبهم، أليغوري مقصود وغير مقصود وباحتراز شديد ليظهر معنى ويُخفي معنى متستّرا خلف الاستعارات والتشبيه والانزياحات، وقد يعود هذا للبيئة المحافظة والمجتمع الذكوريّ النرجسيّ الذي نشأ فيه الشّاعر بحيث يظلّ الرجل رجلا والمرأة مرأة وشهريار شهريارا... بالتّالي لم يكتب سوف عبيد الشّعر الإباحيّ المباشر عند وصفه لعلاقة حبّ شبقيّة ولم يسقط في فخّ الخطاب التّقريريّ المباشر ولم يستعمل أسماء أعضاء الجسد المثيرة... والفضل يعود للمجاز في تصوير تلك اللقطات الحميمية وهي في قمّة ذروتها وتوهّجها فكان يجسّدها في مشهد حرب وطيسة أو لقاء حميميّ مثير بين مهرة وفرس، أو ناقة وإبل أو يمثّلها في علاقة خصوبة كاشتياق الأرض للمطر وشهوة المحراث للغوص في تربتها...وشبقوردة وهي تفتح البتلات تستقبل الحياة...

أقترح ثلاثة نماذج من حضور المرأة في شعر سوف عبيد:

1 _ المرأة الزوجة

ذكر سوف عبيد زوجته في نصوص عدّة إمّا بعبارة الزوجة أو بذكر اسمها ليلى، يصف صبرها، أمومتها، غيرتها... فلم يتخفّ ولم يتذرّع إلى المجاز لا إلى الاستعارة أو الغموض لأنّ العلاقة واضحة لا تحتاج إلى التّستّر مقنّنة بالقانون ولا خوف عليه من المحاسبة إن وصف مشاعره،تغزّل، مدح، عاتب، هجا... ولم يلجأ إلى الأسلوب المبهم إلاّ بما اقتضته الصورة الشّعريّة ولا حاجة له في إجهاد القارئ في التّأويلات.

يقول في نصّ *الشهر التاسع * ص 28 من ديوانه ذاكرا لفظة الزّوجة:

«أيّتها الزّوجة في شهرها التّاسع
مضت شهور الوحم
مضت أشهر الألم
فمن يكون في الرّحم
ذكر ، مشحون رجولة / أم
أنثى، مليئة خصوبة»

الخطاب مباشر، صريح لا يحتاج تأويلا أو تفسيرا، في انسجام وتضامن مع مشاعر الزوجة يُقاسمُها تعبها حيرتها حول جنس الجنين ويُشرك القارئ تخوّفه وتوجّسه من المستقبل المجهول بأسلوب سوداويّ هازئ من المصير المجهول المنتظر وهو يطوف بقارئه في رحلة التكوين والوجود ونراه يفكّر كما المجتمع، الأنثى خُلقت للخصوبة، تُشبه الأرض في العطاء والانتاج، والذّكر مواقف ورجولة ليس هيمنة وغطرسة.

في نصّ * أحوال يوسف اليقظان* ص43 يقول:

أوّل الشّهر، اليوم

انتظرت دوري ساعتين
لأتسلّم الرّاتب
يا وقتنا الضّائع
يا جيلنا الخائب
وغدا / عيد ميلاد ليلى
قيسها والمتاعب
أختار هديّة لها
لعبة لابني زياد
روتين العمل ، ثرثرة المقهى
معذرة يا يوسف إن تشاغلت عنك
بالمال والبنين/ زينة الدّنيا
لكنّ الذي في القلب/ في القلب
معذرة يا يوسف / إذ تركتك في الجبّ

نلاحظ تماسك بنية النّصّ الشعريّ واتّساقه من خلال التّقابل والتّشابيه، كاستعارة اسم قيس، وكأنّ الشّاعر يريد إحداث مقابلة بينه وبينقيس بحكم تشابه الأسماء بين اسم زوجته وحبيبة قيس غير أنّه يشفق على ليلاه، فحظّها ليس كحظّ ليلى في الدّلال لأنّ حظّ قيسها المتاعب،فهو لم يتمكّن من شراء هديّة لها في ذكرى يوم مولدها... واختزل الأحداث في وصف المعاناة اليومية، فحياته صارت روتينا، وثرثرة مقاهي،تغافل وتلهّى عن نفسه بالواجبات والمال والبنين في تناصّ مع النّصّ القرآني «المال والبنون زينة الحياة الدّنيا» بأسلوبه الساخر ليكسب مساندة القارئ له أنّ الحياة الزّوجيّة شبيهة بالجبّ الذي لا خلاص منه ،...

في مقطع ثان من نفس القصيدة يتساءل إذا غيّر يوسف من طباعه وذهب للبحث عن يوسفه الثاني الذي تغافل عنه فيقول ص 44 :

تأخذك السيارة، يأخذني القطار
أدخلُ العمارة ... أدقّ باب شقّتي...
تفتحُ لي كالعادة قُبلتان
... اليوم أيضا
... معذرة
أخلعُ حذائي... ساعتي
أعلّق رأسي على المِشجب
أضع مكانه المخدّة
أتجوّل وحدي في خيالاتي السّريّة
تبزُغُ عيناي على سقف الحجرة
... يوسف / جمال/ شباب
امرأة العزيز التي أنت في بيتها
هيْتَ لك
وموصدة أمامك الأبواب
سرير ناعم / أعنابُ
نسوة المدينة كلهن زليخةُ
يقطّعن أيديهنّ
ليكن ما يكونُ
الأرض من الدّم مادتْ
والتي قطّعتْ قلبك غابتْ

بالرّغم من وضوح النص وبساطته ظاهريا إلاّ أنّه يُحيلنا على العديد من القراءات بسبب التناص مع قصّة يوسف وتشبيه كلّ النّساء بزليخة في العشق له، فهل يوسف اليقظان أكثر تقوى من النبيّ؟ وهل عثر على ما يخفّف عنه الرّوتين ووطأة الحياة بديلا ليوسف اليقظان ؟ وفي صورة بلاغية مكثّفة غُيّب فيها المشبّه اختزل

لأحداث في لقطة "كالعادة قبلتان" أيّ عادة يقصدها؟ هل هي عادة التّأخّر والسّهر؟ أم عادة استقباله بقبْلتيْن حين يعود إلى شقّته ؟

من هذه الصّور الشّعريّة نستشفّ أوّلا العلاقة المحترمة بين الزّوجين ثانيا قضيّة المرأة العربية التي جُعلتْ للبيت والانجاب وتحمّل عبء مسؤوليّة الأسرة لكنّها لا تُجادل زوجها في خروجه ودخوله كما يشاء ومتى يشاء، كلاهما واع بهذا العيب، غير أنّ العاداتِ والتّقاليدَ واستغلال الدّين جعل منه قاعدة ونظاما، غير أنّ الزّوجة عبّرت عن عدم رضاها بالوضع فجاء ردّها في استسلام اختزله الشّاعر * ...اليوم أيضا * يصمت الشاعر عن بقيّة الكلام برسم نقاط استرسال فاسحا المجال للقارىء لإتمام الحوار، ويكتفي بالإجابة بمفردة *... معذرة * مع ترك النقاط مرة أخرى لإثارة الفضول لمعرفة سبب طلب المعذرة، هل ارتكب يوسف خطأ؟ أو سكت لأنّ الموقف لا يحتمل تأويلا فذاك واقعا لمرأة والجميع يخضعون له بوعي أو عن غير وعي، وبرضى أو عن غير رضى...

ويدخل يوسف في هلوسة مع نفسه وهو في سريره الناعم يسترجع الأحداث بين تأنيب لعدم نسيانه الخيل والليل والبيداء وتنبيه للاعتناء بحمامة أبي فراس القابعة حذوه كي لا تنوح، بهكذا توبيخ يستسلم يوسف ويتخلّى عن شقاوته، وفي جملة مجازية تقول علّق رأسه على المشجب والحال الثياب تُعلّق والأشياء إنّما يقصد التّخلّص من الوساوس والعود إلى رشده مُجبرا ويرثي حاله انظر آخر قصيدته ص 45 القصيدة أخذت شكل الحكي، السّرد اعتمد تواتر الأحداث والصور الشعرية المبنيّة على العواطف والأحاسيس بمقاربة شبيهة بالواقع كأنّ الشاعر يكتب وثيقة تقريريّة يعيد فيها أحداث ليلة عاشها يُجهد خياله في تذكّرها بغية إيهام القارئ بواقعية ما يصوّر وبصدق ما يقول، بذكر الشخصيات

والأمكنة والأزمنة بأسمائها، وتوسّل المجاز مثل حضر البكاء، قطار السابعة لا يرحم، يتجوّل يوسف في خيالاته السّريّة ...

يواصل الشّاعر استعراض السيرة الذاتية بواقعيّة مفرطة مُستلهما سيرة تخيلية بجعل النص ينفتح على مختلف الفنون كالمسرح والسينماو الفن التشكيلي، وبتواتر الأحداث بتفاصيلها الصغيرة الدقيقة كما لو أننا أمام شاشة أو لوحة أو مسرح ويذهب بنا إلى أبعد من ذلك لنتعاطف معه ونقتحم ذاته بإشارة إلى فتور العلاقة الزّوجيّة وموت الحبّ فيها جرّاء قسوة الحياة وروتينها وانصراف الأزواج إلى الاهتمام بشؤون الدّنيا ونسيان ذواتهم، انظر نص العسل ص 78

يكرر الشّاعر مفردة «قليلا» مرتين في نفس السطر تاركا بينها وقبلها نقاط استرسال، هل يقصد حقا الثياب تضيق شيئا فشيئا بسب الحمل؟ أم يقصد ضيق الحياة الزوجية وضيق الحياة وضيق الجيب والنّفس والحال... وفي صورة مجازيّة ثانية يتحدّث عن تفسّخ الحنّاء سريعا بعد شهر العسل والتي من المفروض أن لا تُفسخ والمقصود به زوال الفرح وانقضاء السعادة التي عبّر عنها بمفردة العسل وقد كرّرها ثلاث مرّات ليعوّضها إلى مرارة، الشّاعر بوعيه يطرح قضيّة هامّة لابدّ من إعادة النّظر في وظيفة الزّواج ووضع أسس صحيحة له حتى لا يكون بناؤه هشّا سريع الانهيار...

ويعود الشاعر إلى السّخرية السْوداويّة في صورة مجازيّة مكثّفة في نص أطلق عليه *سعادة* ص 92 مُسندا للشّخصيات والأماكن أسماء مشتقّة من عبارة سعادة (سعيد، سعيدة ، حي السعادة،)

«اسمُهُ /سعيدٌ/ اسمُها/ سعيدةٌ/ ساكنان في حيّ السّعادة/ ...../ ...../ هو آلة خراطة/ هي آلة خياطة

سعيد/ سعيدة/ جالسان على العشاء/ ثم - تصبحين على خير / تصبح/ على خير/ أسدلا الغطاء»

هكذا تطرّق الشّاعر إلى قضيّة الزّواج الذي يكتّف الزّوج ويحدّ من حريّته ما يوتّر العلاقة مع زوجته لعدّة أسباب، من بينها الغيرة والشكّ، فصاغ ذلك بحبكة وطرافة بالنّبش في الذاكرة في نص *تفتيش* ص 110

النص في ظاهره عاديّ ولا يحتاج لتأويل غير أنّ الشاعر يلمّح لنيّة زوجته التي تفتّش ثيابه وبرّره بتخوّفها من تورّطه في علاقة وهذه عقليّة بعض النّساء في مجتمعاتنا يعتبرن الزّوج ملكيّة خاصّة كأيّ عقار يمتلك والحال أنّه لابدّ أن تكون للإنسان نسبة من الحريّة الشخصيّة في علاقاته فالزّواج عقد لتأسيس أسرة وتعاون وعيش في احترام وأبدًا كان سجنا أو قيودا ولا ملكيّة أو تبعيّة ولا يسمح لطرف تجاوز حدوده لينتهك حريّة الطّرف الثّاني، بالتالي العقليّة الخاطئة لمفهوم الزّواج سبب في موت الحبّ وعقمه وتواجد المشاكل وتضخّم نسبة الطلاق .

2 - المرأة الأمّ في شعريّة سوف عبيد:

تحدّث الشّاعر عن والدته في عدّة نصوص معتمدا البلاغة، واللغة تبدو بسيطة في الظّاهر ولا تكتنف إبهاما فالأمّ لا نزاع فيها هي الكون والوطن والأرض والحضن والغذاء الروحي والمعنوي بالتالي شعرية الأمومة لا تحتاج تأويلا أوتفسيرا أو قواميس لشرح معاني المحبة والحنان، فمشاعر الأمومة لا نقرؤها ولا نتعلّمها ولا نستعيرها، هي لاشعوريّة وجدانيّة، وأغلب قصائد الأمّ قديما وحديثا هي مديح أو رثاء، أو تعداد للمحاسن ، كذلك فعل سوف عبيد نجده مرّة مشتاقا لها مرّة معدّدا خصالها وأخرى يرثيها في

قصة اقتنصها من الماضي يصف أمه يقول بإيجاز ومجاز في نص *الغار* ص 33:

«أمي
عروس دائما
ما أحلى بسمتها في سِواكِها
بين الجمر والفنجان يدَها
لماعة فضّتها في سوارها
أمي/ في حوشنا القديم »

المرأة الأمّ مجازيا في صور سوف عبيد الشعرية رمز للتّراث والأصل والجمال العذري لا أقنعة، لا مساحيق كالأرض معطاء، ترعى صغارها مهما كبروا حتى آخر رمق لها يقول في نص *الرسالة * ص 70:

الجنديّ/ من الجبهة / كتب: / عندما أغمض عينيّ/ أراكِ يا أمّي/ أمامي /
كتبتْ إليه سريعا/
افتح عينيكَ يا ولدي/ فالعدوّ / أمامك /

ويتحدّث في نص عنوانه * أمّ الربيع* ص 81 عن أعمال والدته وقد أطلق عليها تلك الصفة إشارة ضمنية إلى عادة قديمة من التراث تتمثّل في تقطير الزهور واستخراج مائها وعطورها وزيوتها لاستخدامها في عدّة مجالات طبية وجمالية
وغذائية

لوحة مكثفة من الألوان والضياء والعطور حضرت فيها الحواس الشمّ، البصر، السمع واستعملت أفعال المضارعة الدالة على استمرارية الحركة لرسم المرأة التّقليدية التي تُحسن التّدبير في كلّ شيء.

ويواصل التقاط الصّور الشّعريّة بالحفر في الذّكريات رغم تجاوزه الكهولة فيذكر حادثة تعبّر عن غريزة فطريّة، تتمحور في براءة الأطفال وغيرتهم من آبائهم على أمّهاتهم لكنّه اليوم يعود إليها بمنظار الرّاشد الخبير، والغيرة يعتبرها البعض طبيعيّة فالزّوجة تخشى امرأة تنافسها قلب زوجها وتعتبر الرّجل الذي انتقاها ملكا خاصّا بها، بدوره يعتبرها بضاعته، نجد ذلك في ومضة مكثّفة تتجلّى فيها الغريزة الفرويدية وروح الدّعابة ❊براءة❊ ص 87 ويتذكّر والدته وأين قضّى طفولته الأولى فيعبّ عن شعور النقص العاطفي الذي سبّبه ابتعاده عنها في نص ❊ حصان الطين ❊ ص 112

❊يوسف يمضي
على رقص شنشنة الفضّة
وأريج الشّاي
بسمتها في سِواكها أمي

نفس الصور يكرّرها كرمز للأصالة والتراث مثل استعمالها للسّواك الذي ورد ذكره في عدّة نصوص وخبز الطابون الذي كانت تجهزه قبل الفجر وممارسة بعض العقائد كرشّ الماء خلف المسافر من الأقارب في نيّة الذّهاب والإيّاب سالما...

مجاز الأمومة ذكر في كلّ الأجناس الأدبية شعرا ونثرا، تقريرا وتوثيقا بالفصيح وبالعاميّة مثل ❊رحمة الوالدين❊ ص 194

توحشتك يا أميمة
محلاها في وجهك تبسيمه
آه... يا أميمه
توحشت رنة كلامك
ونغمة سلامك
توحشت حتى ملامك

...

نص *الوداع* ص 212 :

*وأمي بيننا تسعى*** بكأس الشاي مستوفى

مع النعناع قد فاح*** فما اشهى له رشفا *

جميع النّصوص التي تناولت شعريّة الأم جاءت شفافة كقطرات الندى واضحة كالشمس، استعارت من الطبيعة العذراء أجمل صفاته التناسب مقام المتحدّث عنه، كيف لا والجنّة جُعلت تحت أقدام الأمهات

3 - المرأة الحبيبة في شعريّة سوف عبيد :

كلّ الشّعراء قديما وحديثا تغنّوا بالمرأة الحبيبة وتغزّلوا بها وبمفاتنها، والأمثلة كثيرة في روايات العشق نثرا وشعرا مثل قيس وليلى ، عنترة وعبلة، امرئ القيس والأطلال، جميل وبثينة، وأسطورة آدم والتفاحة، فالمرأة كوكب الرّجل والفلك أو المحور الذي يدور حوله وداخله، هي كلّ شيء في حياته، سواء اعترف أو لم يعترف.

والشّعر ملاذ المحبين والمكان المناسب لسكب العواطف المكنونة، الملتهبة، وهذا الشّاعر سوف عبيد بدوره عبّر عن لواعجه في كتاباته وما فعلت به نار العشق وطعنات الغدر والهجر، وحلاوة الحب وقساوة الصدّ والظّفر بالصّيد، فنجده عنِيَ بالمرأة وأولاها قسطا كبيرا من اهتماماته كما الوطن والحرب والسلم والقيم وقضايا الإنسان على اختلافها، فكان دقيقا، فصيحا، صحيفا، مرهفا، لم تفته شائبة إلا وجعل منها قصيدة ولم يترك خرزة إلا وجعل منها عقدا... يصف الشّاعر تعفّفه وترفّع أخلاقه، واحترامه ما لقيصر لقيصر، وبشاعة الواقع في نص *الوردة* ص 80

*أنا الراحل من بلد
إلى بلد
راقتني في طريقي وردة
يانعة حمراء تتّقد
أقطُفُها قلت
كلاّ...
حرام يلمسُها أحد
عندما وصلتُ إلى المحطّة
لقيتُها أمامي
ذابلة...
من يد ليد*

مشهد درامي دقيق جدا، تداخلت فيه فنون المسرح والسينما والألوان واستعملت

الحواس فيتحوّل المشهد من رؤية بصرية إلى حكاية كحكايات ألف ليلة وليلة تقرأ فيها صراعات الذات الباطنيّة البسيكولوجية،ونفسية الكاتب...

كما وظّف أسطورة التّفاحة بمعانيها ومضامينها في مشهد يصف فيه تطوّر بناء علاقات الحبّ من خفقة، ولهفة للقاء ... إلى سحب بساط التكلف ونزع القناع والوقوع في سرير الغرام يقول نص *التّفاحة* ص 39:

اللقاء الأول
حضرا معا قبل الموعد
جلسا وتركا بينهما مسافة/ .../ ...
اللقاء الثاني
حضرا قبل الموعد أيضا

كانت الأصابع مباحة/ .../ ...
حينما افترقا في الساحة
التصقا
وصارا نصفيْ تفّاحه /
اللقاء الثّالث
خلعا خرق الدّنيا
لبسا أوراق الجنّة
كان آدم... كانت حوّاء
وأكلا التّفاحه

بتعبير مجازي مكثّف وفي ثلاثة مشاهد كأنها لقطات من فيلم أو حلقات مسلسل، صوّر الشاعر قصّة رومانسية من ألفها إلى يائها، بحذق لاقط الصور وفطنة المخرج السينمائي المحترف الخبير بالحالة النفسية للشخصيات وما يجول في أذهانها وبصور تخييلية يسقطها على الواقع وبمعراجه إلى السّماء ليوقع بالمتلقّي ويُقنعه أنّ الحبّ في جميع تجلّياته غذاء روحي فالسّعادة تكمن في نشوة الحبّ وأما ما نلبسه في الدّنيا هو خرق بالية من حبكة العادات والتقاليد

المجاز في شعر سوف عبيد ينطلق من البسيط جدّا إلى العميق والغامض جدّا، ومن الدقيق جدا إلى اللافت للانتباه جدّا، ومن الملموس إلى التجريد، بحنكته وبراعته المعهودة في التّصوير، ليزُجّ بقارئ نصوصه في دوّامة التّأويل مرّة داخل رسم تكعيبيّ مشدوها متأمّلا، آخر أمام خطّ دائريّ لا يعرف الدّخول أو الخروج...

يقول في نص البرتقالة ص 48:

ناولتِني بُرجا / ناولتُكِ بُرجا
ترشّفنا العصيرَ...

حِصنا حِصنا
فتحنا أبواب الجزيرة
ثم نصّبتك أميرة
من الماء/ إلى الماء

بهكذا بلاغة وبيان يلقي الشّاعر بقرّائه في متاهات المجاز فالمشهد ينطلق من صورة عاديّة جدّا، ليحضر في رمشة عين الإفراط في الخيال وليتخبّأ الوعي بين هُدُب اللّاوعي، فتتحوّلَ البرتقالة رمزا وترشّف العصير يسكت عنه بترك النقاط لإفساح المجال للقارئ لرسم بقية خطوط القصّة وجذب خيوط اللعبة كل بحسب ثقافته وفطنته، ثم يتحوّل المشهد فتحا مُبينا، ونخوة بالانتصار، وتنصيب الحبيبة أميرة على عرش القلب... من الماء إلى الماء، لتكون الخصب والرّواء وكيمياء الحياة...

ويقول في نص أنامل الزّهر ص 50
افتحي نافذة البيت
ثم أدلي بيديكِ إلى العشب

صورة مجازية مستوحاة من الطبيعة (العشب الناعم والماء) فنافذة البيت هي نافذة القلب، وأنامل اليد الرّقيقة في الماء شبيهة بقطع السّكر حين تُضاف إلى القهوة، والقهوة رفيقة وقصّة حبّ وقصيدة... فهل لعلاقة رومانسية معنى

دون محبة ومداعبة؟ ألم يغني صباح فخري عيشة لا حب فيها جدول لا ماء فيها؟

لا أدري إن كانت قصائد سوف عبيد تقرأ بالعين والشّفاه أم بالقلب والوعي، إذ هو يلقي دوما بقرّائه في يمّ المجاز، وشباك التّأويلات فلا يصلون الضّفاف باعتماده لعبة التّخفَي وأسلوب الإبهام، فيقعوا صيدا في سلّة التّجريد والتّهويمات

في نص فراق ص 55:

التي أحببتها
خبّلت شعرها بالليل
مشطته
...
عقدت لها موجتين
على الخصر
ثم انسابت سمكة

في هذه الصورة البلاغية عدّة تأويلات، قد تكون إحداها تعبير عن مرارة الفراق لعلاقة حبّ انتهت...

غير أنّ القلب لا يموت والحبّ يبقى في الشريان فالعشق انصهار وذوبان وسفر إلى معراج الذّات عبر الحبّ اللّامتناهي دون حواجز ودون جنود حراسة يقول نص *أزرار* ص 60:

على جليز الغرفة
الفارغة
فتحت أزراره
واحدا
واحدا
ثمّ...

لبسته هل الأزرار هنا أزرار الثياب، أم أزرار القلب أم أزرار الحياة، أم هي أزرار اللّذة والانصهار في الذّات الغيري؟ ومن التي لبسته؟ هل هي المرأة الشّيطان أم الملاك، أم هي ضراوة الحياة ...

نصوص العشق الشّهوانيّة جاءت بلغة غير موارية، متقوقعة، في قالب إباحيَ

ضمنيّ مستتر وفي بنية صوفية أيروكيّة متشابكة قائمة على الاستعارات والانزياحات والتّشابيه تعكس رؤية وفلسفة وأفكارًا متداخلة متقابلة، متناقضة في ذهن رجل شرقي فرضت عليه سلطة العادات والتقاليد الموروثة أن يظهر بتلك الصورة ليحافظ على نظرة المجتمع له وترغمه ألاّ يكون واضحا عند وصف أو خوض علاقة رومانسية شبقيّة،يقول في نص موجز ومكثّف *المدفأة* ص 124:

«في جليد ليل الشّتاء
الشّاتي
مدّت يدها نحو المدفأة
فحرّكت بأناملها
جمرات القلب»

قد يعمد الشّاعر إلى التّلميح في بعض نصوصه، من خلال سهولة اللغة وعدم المبالغة في إخفاء المعنى، السّهل الممتنع بابتكاره صورا شعريّة مكثّفة، فيتجنب الصور العبثيّة المجرّدة ويعتمد دقّة الخيال والتّشابيه الحسيّة بما يسمّى الشّعريّة المستلهمة من الطبيعة فهو لا يصف ملامح المرأة يستعرض مفاتنها الجسدية وأعضائها المغرية والمثيرة فالمرأة عنده جنّة موعودة وروح طاهرة ورمز للأشواق العارمة غير أنّ الفكر والثّقافة الذكوريّة كما قلنا تفرض عليه أن يكون منغلقا، محافظا وما يجعله يعتمد الذّاكرة عند وصف الميتا اليومي الذّاتي المتداخل مع الذات الغيري

نص *البرتقالة والسكين* ص 142 يؤكّد ذلك:

أشتهي البرتقالة بأصابعي
أغرس فيها بلطف
ثم أطوف بها

أداعب الثّنايا والتّلافيف
حتى أصل إلى غلالتها البيضاء
ثمّة ... تحت الشّفيف... هناك
الأرض في أوج الفصول...،.....
الأبراج أفتحها
وحدي
بلا خيل أو مدد
فيرشح العصير على شفتي
ينزّ برحيق الأرض

إلى أن يصل القول في آخر القصيد، أنّه حقق النّصر المبين فمن مشهد خاطف مقتبس من الواقع اليومي إلى الإغراق في الواقعيّة المفرطة والتحليق بالخيال الواسع من عالم الغرفة الضّيقة إلى عوالم الطبيعة الخصبة والكون الفسيح، إلى صور الفتوحات في الغزوات والانتصارات والتاج والملك...

الشّاعر طوّاف مُجيد، مصوّر بارع، سرعان ما ينزل بقارئه إلى أرض الواقع والملموس بعد أن كان أركبه مركبة الخيال والإبداع ليفاجئه بالنهاية الصادمة ، يقول في آخر القصيدة

«لا حاجة لي بالسكين
كفى ما فعلت بي عيناك
شكرا سيدتي
سلمت يداك
قشّريني»

هكذا الشاعر صوّر المرأة على أنها جزء مهمّ في هذا الوجود، والهوى عذريّ لا يتعارض مع نواميس المجتمع ولا الدين، هو تصوّف ورحلة اكتشاف الذات وسفر مع الروح لمعرفة الآخر

والغوص في الذّوات المقابلة لبلوغ السعادة، فالحب حاجة إنسانية عميقة، قيمة سامية له انعكاسه على تركيبة الإنسان الفيزيولوجية والطبيعة هي أصدق وأنقى الموجودات للتعبير عن هذا التصوف الايروكي، يقول في نص الشجرة، ص 144:

«هي الجذع والفرع مشتبكان
كمثل حبيبين يعتنقان
ألا ليت أولئك العاشقين
جميعا تلاقوا بذاك المكان»

وفي نص * بعد هجر * ص 152: يؤكد أنّ الحبّ طاقة وهرمونات تكسب صاحبها شحنة إيجابيّة

فالغلبة للقلب والوجدان، فهو السلطان والشوق والمدى ومفاتن الحبيبة الصّولجان يقول نص *حتى * ص 155

قدّها المغزليّ المصقول
ينخر العباب
يتلوّى مثل العنفوان
على الرّمضاء
بين شفيف الملح
وحنايا الموج
من فرط حبّي للسّمك
أكلت السَمكة
حتى... ذنبها

وفي نص * وجه لوجه * ص 155 ما يشير أنّ المواعيد التي يغيب فيها العاشقان عن بعضهما يتوقف فيها الزمن ويضحى المكان دونهما دخانا ومتاهة...

أمّا نص * الفاتحة * ص 173 نجده يهتمّ باللّب والقلب والمضمون فقيمة الشخص تكمن في الفكر والأخلاق والثقافة وسرّ العطور في مكوّناتها وليس في شكل القوارير التي تحويها كذلك المرأة ليس مظهرها هو المقياس بل فكرها وأحاسيسها
ويقول في نصّ * الجناح * ص 191:

«زقزق / زقزقت
رفرف/ رفرفت
تناثرت ريشة هنا/ تطايرت ريشة هناك
الريشتان راحتا على حفيف الرّياح
عندما طلع الصّباح
رأوهما إلفين
يُرفرفان في نفس الجناح»

وقبل ان أختم مقالي أشير إلى نصوص مختلفة لعب فيها المجاز دورا مهما وهي قابلة لتأويلات عدّة قد لا يتوصّل المتلقي إلى إدراك المعنى الذي يرمي له الشّاعر بسبب تخفيه خلف المجاز واختياره الصور الشعرية المستلهمة من الطبيعة والكائنات والواقع، عبر رحلات وجودي وتجليّات صوفية أيروكية في تمازج النزعة الانسانية بأصلها الروحي الإلهي مع فيض الأحاسيس واستحضار الذّكريات مثل نص * الأحمر والابيض * ص 226:

حمحمت ضابحة
مجنّحة
حتى وصلت إلى ذروة الوجد
فرفرفت وقالت وقد أرخت له
العنان: هيتَ لكْ

إنّي لكْ
وعلى جواد جموح وسط وطيس
الحرب
خاض غمارها
ما بين رمح وترس
طال النّزال
حتى سال الأبيض
على الأحمر

* العاشق الاخير * ص 227 * مقام الوجد * ص 228 *شبق الورد * ص 230 *زهرة التوليب * ص 232

* زهرات المرمر* ص 239 * الشاي* ص 242 * المهرة* ص 263 *الفستان * ص 264

* الوشاح * ص 265 * شمس النافذة ص 267 – 268 * فارسة* ص 268

الخاتمة:

المرأة المجاز في شعر سوف عبيد، العشق والحب خاصة كثيف وعميق وحضورها له أهميّة بالغة في الالهام والإبداع، فما طرحته هو دغدغ ةللمختصين في مدارس النقد والدارسين في اللغة واللسانيات لمزيد البحث والتعمّق في هذه التَيمة والنّظر فيها سيميائيا وكيميائيا ولغويّا وم نجميع النواحي معنويا ونفسيا واجتماعيا، فتأثيره على كتاباته كرجل مثقف وفي الآن نفسه هو رجل محافظ يعيش في مجتمع ذكوري نرجسيّ بامتياز مرتبط بالقوانين البيئية التي فرضتها الطبيعية والنّواميس التّقليدية التي تنظر للمرأة جسدا وجنسا ومتعة ونشوة وهذا فيتناقض تامّ مع الواقع

المعاش، إذ نجدها العمود الفقري للمجتمع وتوكل لها المسؤولية لتسيير شؤون العائلة فهي الاقتصاد والتصرف والترشد وهي الحضن والدفء والأم والأرض والماء والحياة ، يؤُمّها الجميع في أوقات الشدة والعوز وعند الشعور بالحاجة للأمان...

خلاصة القول، الشاعر سوف عبيد لا يمكنه أن يكون خارج السّرب، أو يجدّف بمفرده ضدّ التّيار، غير أنّه يثمّن جهود المرأة، زوجة وأختا وحبيبة فهو يحترمها ويعترف ضمنيّا وتصريحا أنّ الحياة دونها لا قيمة لها فالمرأة هي الشّهد وهي القصيدة... ويتأكّد ذلك من خلال إهداء منجزه الأدبي بصمات وخطوات *لزوجته ليلى شكرا واعتذارا* ويستلهم صفات جمالها من صفات الطبيعة وعناصرها، علامة الطهر والنقاء وجاءت نصوصه معبّرة عن حالات العشق الروحية والصوفية الهيستيرية ودون جدال المرأة هي السعادة المنشودة في الحياة، وكلّ ما يعكّر صفوها يعكّر أيضا صفو الحياة والرجل، فهي نشوته وإلهامه وهي الوجود والخلود... والمرأة هي ولادة القصيدة في ذروة مخاضها بعد حالات الوحم والتعب فهل يمكن أن نخرج باستنتاج في الأخير أن تلك التعابير المبهمة عن المرأة المجاز بوصفها حربا وطيسة أو مغامرة شرسة هي وصف لعلاقة الشّاعر بولادة القصيدة؟

المجموعة الشعرية :
الأرض عطشى للشاعر سوف عبيد
جمالية الالتقاط وشعرية الانتماء

منير الوسلاتي

تقديم من أي الابواب ندخل عالم سوف عبيد الشعري؟ وهو الذي وهب ردحا طويلا من عمره يتلمس ذاته وحياته في أفق القصيدة،إذ قضى سوف عبيد ما يناهز خمسين عاما في الكتابة إذا احتسبنا بداية ظهور كتاباته على أعمدة الصحف منذ سنة 1970، ثم ظهور أول اصدار منشور له سنة 1980.وان كنت أحبذ استنطاق النصّ وتأمّل بنيته اللغوية وأشكاله الفنية للوصول إلى فهم المضامين، إلا انّ العمل الذي نحن بصدده والمتعلق بمجموعة الشاعر الأولى «**الأرض عطشى**» الصادرة سنة 1980 تقتضي مقاربة السيرة الحياتية للشاعر بالتجربة الشعرية والمضامين المطروحة في مجموعته،إذ لا يمكن الفصل في تأويل النصوص الشعرية ومسارات التجربة الحياتية للشاعر، وان كان يتعذر على الباحث الالمام بحقائق هذه الحياة فإن الخطوط العريضة والعامة لهذه الحياة وما عُرف عن الشَّاعر في حراكه الثقافي والاجتماعي وأثره الإنساني يمكن أن يدلّنا على أصباغ هذا الأفق الجمالي في قصيدته. كما أن مجموعة الأرض العطشى تقتضي بالقوة وبالفعل فهم هذه العلاقة «الكيانيّة» الوجودية بين الشاعر والأرض من حيث الانصهار الوجودي الرمزي بينهما من جهة أو من حيث تشكّل فكرة الانتماء،انتماء الشاعر للأرض من خلال الفعل الشّعري

واختياراته الفنيّة ...وعلى ذلك سنحاول قراءة الافق الجمالي لمجموعة الارض العطشى في سياق أفقها الأدبي اللغوي ولكن بعلاقة مع الأفق الفكري والتجربة الحياتية للمؤلف على اعتبار ان نصوص الارض العطشى يبرز قيمة الذاكرة، ذاكرة الامكنة وجمالية التقاط الصور النادرة وغير المعهودة احيانا التي يوظفها الشاعر من قصيدة إلى اخرى، ومن ثمة هذه الاختيارات المشهدية من ذاكرة الحنين هي التي تشكل شعرية الانتماء للمكان (للفضاء).وتلك مهارة ميزت سوف عبيد فنيا في احتفاء نصوصه بالتفاصيل وامساك عدسته الفريدة باللحظات الهاربة يطبعُها بطابعه الذاتي المختلف والمغموس في الدهشة،ولعمري تلك ميزة جامعةٌ بين أهل الفنّ وهي المقدرةُ على التقاط الجميل العميق في شقاق الأحداث السطحية العابرة وفلول ايقاعات الزمن العفوي الرتيب...

1 ـ الألوان والاضواء في أرض سوف عبيد:

بنظرة بسيطة سريعة أولى في مساره الحياتي ترى أن سوف عبيد الذي ولد في منطقة بئر الكرمة ذات أوت 1952 بمنطقة غمراسن بالجنوب الشرقي التونسي وعاش بها جزءا من طفولته من ناحية ثم انتقاله بعد ذلك للسكن بالعاصمة بمنطقة مقرين (الضاحية الجنوبية بالعاصمة) ثم عمله بمناطق الشمال (بوسالم –جندوبة / ماطر– بنزرت/ رادس بن عروس...الخ) تلك التنقلات داخل وطنه تونس جعلت ذاكرته الضوئية واللونية متنوعة وثرية فقد ترسبت في ذاكرته اللونية صفرة رمل الصحاري وحرارة طقس الجنوب ونسائم لياليه الباردة من ناحية وزرقة شطآن رادس وبنزرت وكل مناطق السواحل التي زارها ونشط بها من ناحية اخرى ثم خضرة سهول بوسالم وباجة ومنوبة (الاماكن التي عمل بها)، كما نضيف لهذا

التنوع البصري في ذاكرته أسفاره خارج البلاد ضمن أنشطته الأدبية والثقافية وتميّز حياة الشاعر بالتنوع والثراء الذي ينتج عن التنقلات والأسفار داخل الوطن وخارجه ...ان هذا الخزان البصري الذي تحتفظ به ذاكرة انتقائية حية تسكب ألوانها في مضامين القصائد وفي المشاهد المختلفة التي يصوغها الشاعر. وهو ما يفسر تكرار اللون الاخضر مثلا في قصائد الأرض العطشى في قصيدة البدء قوله:

أنتِ
أيّتُها الشّمسُ الغائبةُ خضراءُ
هذا جبيني مَسارٌ لكِ
*** أو قوله من نفس القصيدة
صُبّي الضّوءَ في مَسامّ جلدي حتى الذّروة
فالأرضُ عَطشى... الأرضُ عطشى
أَحـبّـيني يا خُضرةَ عُشب المقابر
أحـبّـيني خضراءَ
اوقوله في نفس القصيدة
أنتِ أنا أيا أرضُ
خُضرةُ قمر الليل في النّهر
*** أو قوله
لحمي
دمي
عروقي
تُربةُ
جذورُ
خضرةُ الشجر

تُـناسلُ عَفَن الأرض

*

أنتِ الخُضرة

أنت الخضرة

أنت الخضرة

أيا أرضُ

لا تسألي عن الخبر

فالسّمعُ

والبصرُ

خُضرة !

وقوله من قصيدة العصافير والماء:

تَوزّعتْ فُسيفُساء المَسبح

وَسَط الماءِ

صارتْ سهلا

صارت بِساطا

أخضرَ

***وقوله في قصيدته الحصان الابيض

في المَدى

تحتَ الشّمس

رُوَيدا رويدًا

تلاشتْ عِمامتُه الخضراء ؟

***وقوله في قصيدته النيل:

بحرُ النّيل أخضرُ

فيه الصّيادونَ

فيه الأفلاكُ

فيه الأسماكُ في الشّباكِ

ويستمر محفل الخضرة والنضارة في استعماله لألفاظ (اعشوشب) و(العشب) (السهل) (الماء) ..الخ وهو طقس شمالي بامتياز لعلّه على الارجح كتب بين احضان مدينة بوسالم وسهول جندوبة حيث اشتغل الشاعر أو بمنطقة منوبة أواخر السبعينات أين درس الشاعر بالنظر إلى سيرته الحياتية. كما ان اللون الاخضر الطاغي في قصائد من المجموعة لا يحرم ألوان اخرى من الظهور الفني في النصوص كقوله

يكونُ اليومُ أحمرَ
في شيءٍ من البَرد
يكون اليومُ أخضرَ
في شيءٍ من النّار
أبيضَ بياضًا
كأنّهُ منكِ ومنّي

كأنك إزاء رسام تشكيلي انطباعي تارة يرسم بأسلوب اللطخة اللونية يضعها في المشهد ويستمر يضيف الالوان يستدرج بعضها من بعض ويشتغل عليها بانفعالات احساسه العميق دون ان يعرف إلى اين تؤدي حركته اللونية في المشهد، أو انّك ازاء تشكيلي وحُوشي بتعسّف على الالوان فيجعل القمر أخضر والظل احمر والشجر أزرق وشارع البيت خيطا اسود ...الخ،فرشاة من الكلمات تعبث بالالوان وتحول الاشياء بعد نقعها في خامات احساس الفنان...تزدحم في اللحظة التصويرية للشاعر أضواء الافق تنعكس على أرض الشاعر وسمائه فتتنوع المشاعر بكمية الضوء المودع في المشهد متماهية مع جوهر الحالة العاطفية ومصطبغة بها... أليس جوهر الكتابة الابداعية كما تقول الباحثة روز ماري لاقراف

Rose M.Lagrave هي كسر للعالم وإعادة بنائه (l'écriture est (une façon de fracturer le monde et de le reconstruire ... ان الفسيفساء الضوئية التي يلقيها الشاعر في مفاصل قصائده تتنوع ضوئيا عابرة لكل فترات النهار والليل فنجد الليل بكل توابعه الرمزيه في بعض قصائده والليل افق الرومانسيين بامتياز يستثار فيه الحلم والأمنيات وتتجلى فيه الرغائب الدفينة المعلن منها والمخفي والآمال المتربصة والاشواق المتلهفة (مثال ذلك قوله من قصيدة:صبية)

ليلةَ أجَرنا الشُّهُبَ
تَعَشّيْنَا سَواءَ
كلّمَا نَقَصَ الثّريدُ في الجَفْنةِ
زادَ الثّريدُ

او (قوله من قصيدة الراية)

تَعالِي الليلةَ
إلى خيمتِي
نتقاسمُ حفنةَ تَمر
نجلسُ على الرَمل
فأنا وأنتِ
في سُبحة الشّيخ
في ضياءِ النّجم
في حِداء الّنياقِ
*أوحِي إليَّ الليلةَ مِنْ لَدُنْكِ
فأنا الليلةَ
قد فَقَدتُ ذاكرتي

او (قوله من قصيدة المجيء في الليل)

الليلةَ
الأماسي يَــبْــيَضّ فيها خيطُ شارعِنا الأسودِ
تَغْرَق طفُولتُنا
في قاع مَنامتِها السّابعةِ
....
الليلةَ
أمْسَيْتِ أرضِي
حَرثي ...غَيثي
ووِديانَ سَيلى
منَ العشقِ أزرعُ البراريَ مَشاتلَ فُــلّ
.... إلى ان يقول:
الليلةَ
ساعةُ الحائط تدُقُّ طبولَ الغزوِ في عِرقي
ذكرْتُ البارحةَ قميصًا أبيضَ
غَسَلتُه أمّي
نَشرتُ كتاباتي
نثرتُها في الرّيح
وجِئتُكِ الليلةَ
مَع اللّيل !

هذا التكرار لليل والذي يشي بدلالات مختلفة تصور اللحظة الضوئية في المشهد ولكن تصور اللحظة النفسية وقوادح الصور المرافقة فتبرق في الذاكرة المسيجة بالانتظار والأشواق المتمثلة في مشهد الساعة الحائطية التي تدق طبول الغزو في عرق الشاعر تمرّ في لقطة سريعة مخاتلة صورة الأمّ تغسلُ قميصا (ابيض) ثم يعود فجائيا إلى نشرت كتاباتي ونثرتها في الريح/ وجِئتُكِ الليلةَ

مَع اللّيل! انه تركيب بصري سينمائي للمقطع إذ تتحول لحظة الاحساس بالليل إلى ثنائية شوق وانتظار لحدث ما منتظر وهو (المجيء ليلا) مع لقطة عابرة في المخيلة وهي أمّ تغسل قميصا ابيض...ان هذه الصيغة التصويرية تحيلنا إلى وعي بصري حداثي لدى الشاعر سوف عبيد في توظيف الألوان والأضواء والمواقيت من ناحية والاستفادة من تقنية التركيب السينمائي كأنّما شاعرنا يبرز نفسا حَدَاثيا جديدا في تفتّح فنّ الشّعر على الفنون المجاورة حيث تستحيل الكلمات التقاطا فوتوغرافيا لمَّاحا يبرع في تركيبه بصريا كما ان النّزعة الفلسفية في معنى المجيء ليلا ومع اللّيل والغارق في ايحاء صوفي وجودي يفتح امام المتأمل أبواب التأويل والدهشة وعلى قدر انّ الجُمل لامحة البرق ومكثفة ومختزلة ضمن ايقاع نفسيّ يصل داخل الشاعر بظاهر الاشياء فهي بؤرة معنوية بعيدة الدلالة والعمق الفني تستنفذ معها رصيدا من الاطّلاع على مدارس الكتابة الابداعية ومختلف المناهل الجمالية التي صبغت تاريخ الادب العربي والعالمي.

2/ شعريّة الانتماء في قصائد الأرض عطشى

ان مفهوم الانتماء، انتماء الذَّات الكاتبة في حالتها الشعريّة لموضوعها تتشكّل كما لدى شعراء كثر في تاريخ الشعر العربي يتمثل في فكرة الحلول والتحلّل في الطبيعة وفي الأشياء ، الانصهار في الشكل واللون ومغادرة الممكن البشري المعقول إلى التماهي مع حركة الضوء والظلال والغيم ودوران الاجرام والكواكب والانسياب مع الماء والهطول في المطر والدمدمة مع الرعد والذوبان في عزف الرياح والانسياب مع الشعاع وهبيب النسيم وهفيف الغصون وحفيف الشجر ورقرقة الجداول وسلسلة الانهار...الخ من انماط تَشكُّلِ الذّات المحدودة منطقا وعقلا

المارقة عن المقدور الخارقة للمعقول عبر أدوات المخيلة الخلاقة الكاسرة للزمن والمسافة والأحجام، ولعل سوف عبيد كما الذين سبقوه من الشعراء الرومنطيقيين وكذلك بعلاقة ارتدادية للنزعة الصوفيّة فينزع من حين لآخر لهذا الحلول الجمالي في الطبيعة والتحلّل المبهر المذهل في عناصر الأرض فيتذاوتُ معها وينصهرُ فيها ضمن مشاعر عاطفة قويّة الدّفق والتجلّي،ولعلّ هذا النمط من الكتابة يشي بثراء اطلاع سوف عبيد الأدبي وصدوره عن جماليات شعرية جامعت بين ينابيع التراث الشعري العربي وتجارب الشعر الحديث وتنوع مصادره الاستيتيقية فيما يتعلق بفنّ القول والفنون المجاورة...

لنتفق اولا ان هذه الأرض التي يتناولها سوف عبيد هي إمّا كلّ الأرض ببَرّها وبُحورها بِسمائها وأجوائها، بليلها ونهارها، وأنّ الحلول فيها امّا حُلولٌ «انتثاري» للذات الشاعرة كليًّا أو جُزئيا أو هو حالة حوارية تناغميّة مع عناصرها وتنقسم إلى حالتان امّا حالة التضاؤل والانفعال أمامها والتواطؤ مع حركتها أو حالة التكابر الرمزي للذات –على معنى العظمة والضخامة والشساعة والرحابة – مع جزيئاتها وأشيائها كما سنبينه في الامثلة الموالية نورد بعض معاني العظمة عبر حلوله الكوني البديع التي يبرزها الشاعر في (قوله: من قصيدة البدء) :

سَريري رَحبٌ اللّيلةَ
يا أفلاكُ اِستريحي بقُربي
دُوري في كفّي كالخُذروفِ
يا سماءُ تَمدّدي على بدنِي
أفصّلُ لك من جِلدي خريطةَ الكونِ
أنتِ

أيّتُها الشّمسُ الغائبةُ خضراءُ
هذا جبيني مَسارٌ لكِ

انه اتساع خارق مذهل لأشياء الشاعر ، سريره رحبٌ شاسعٌ إلى درجة انه يستوعب كل الأفلاك (والفلك هو مدار الاجرام والكواكب) يدعوها للاستراحة فيضيف إلى الرحابة والاتساع المبهر معنى السَّخاء والكرم المبهر بدعوة السماء المتعبة للتمدد على بدنه وبدعوة الشمس الغائبة ان تسير خضراء في ثنايا جبينه، ولعلّ الصوّرة تتناسل منها معالم العظمة بشكل متواتر ومكثّف على نحو يستحيل الشاعر فيه كونا متحركا يتفاعل مع العناصر عطاءً وسخاء لا ينتهي بكل ما اوتي من شساعة التشكيل والرؤيا

***البحرُ يَدخُل الأرضَ من بوّاباتِ السّواحل
أكونُ ساعةَ الوُلوج
القمرُ يحرُثُ صمتَ المقابر
أكونُ زرعَ الضّوء
الليلُ يرُشّ شجرَ الشّوارع
أكون بدءَ الحُلم
أوّلَ الصّحْو في السّاحة

في هدا المقطع تبرز جمالية التحوّل في الكينونة والانتثار الرمزي للذات الشاعرة فيصير الشاعر ساعة للولوج عند دخول البحر الأرضَ من بوابات السواحل ويكون زرع الضوء عندما يلقي القمر ضوءه على المقابر ويكون الحلم عنما يرشُ الليل الشجر. ان هذا النفس الصوفية الذي تشي به هذه المقاطع توضّح الثراء التخييلي الذي يعتمده سوف عبيد في اسلوبه التصويري ولكن هذا الشغل الابداعي في بنيته التخييلية يرشحُ عن طاقة شعريّة فريدة تبلور معنى انتماء الذات الشاعرة لموضوعها وهو الارض

بمكوناتها وعناصرها، فيخدم التذاوت التصويري مع الارض هذه العلاقة العاشقة للأرض المتعلّقة بها محبة واخلاصا حينا ذوبانا انفعاليا في تفاصيلها وأضوائها والوانها وحركتها وحينا تعاظما وتوافقا كيَانيا على معنى الانسجام والتفاعل والانصهار ، وتلك الجماليات في نزعتها الصوفية والرومنطقية نجد لها ظلالا في كثير من قصائد سوف عبيد ولعلها تجد النضج في مجموعاته الشعرية التي تلت اصداره البكر «الارض عطشى»

سُوف عبيد

شاعر تونسي من مواليد يوم 7 آب/ أوت 1952 ببئر الكرمة في منطقة غمراسن بالجنوب الشّرقي التونسي .درس الإبتدائي بغُمْراسِن وبالعاصمة تونس. تخرّج من كلية الآداب بأستاذية العربية سنة 1976 ثمّ بشهادة الكفاءة في البحث حول تفسير الإمام اِبن عرفة سنة 1979.اِشتغل سُوف عبيد بتدريس اللغة والآداب العربية والترجمة في المعاهد الثانوية بعد أداء واجب الخدمة العسكرية ضابطا بجيش الطيران . بدأ النشر منذ 1970 وشارك في النوادي والندوات الأدبية والثقافية في تونس وخارجها واِنضمّ إلى اِتحاد الكتاب التونسيين سنة 1980 وأُنتُخب ثلاث مرات في لجنته الإدارية. وهو من مؤسّسي نادي الشّعر بتونس سنة 1974. وكان عضوا في الهيئة الإستشارية لمجلّة ـ الحياة الثقافية ـ بتونس ونظّم الملتقى الأول والثاني لأدباء الأنترنت بتونس سنتي 2008 و2009 وترأس جمعية ابن عرفة الثقافية سنتي 2013و2014 وقد تُرجمت بعضُ قصائده إلى اللّغة الفرنسية

صدر له:

- الأرض عطشى 1980
- نوّارة الملح 1984

- اِمرأة الفسيفساء 1985
- صديد الروح 1989
- جناح خارج السّرب 1991
- نَبعٌ واحدٌ لضفاف شتى 1999
- عُمر واحدٌ لا يكفي 2004
- حارق البحر 2008
- الجازية 2008
- ألوانٌ على كلمات 2008
- عاليًا...بعيدًا 2014
- واحدان 2016
- حركاتُ الشّعر الجديد بتونس 2008
- صفحاتٌ من كتاب الوجود ـ القصائد النثرية لأبي القاسم الشابي 2009
- ديوان سُوف عبيد 2017
- ما تركه المسافر ـ مخطوط القصائد الأخيرة

أديب جمّام قرابه ومازال لم يأت .. محاولة للبحث في تجربة للشاعر التونسي سوف عبيد الإبداعية

كوثر بلعابي

تمهيد :

هذا العمل هو عبارة عن قراءة استقصائية أكثر منها نقدية أكاديمية في تجربة أدبية سخية وزاخرة مداها قرابة نصف قرن من الزمن .. دفعني إليها ايمان بضرورة الوقوف على التجارب الأدبية التي أضافت بالفعل إلى مكتبنا وإلى ثقافتنا الوطنية والقومية بل وساهمت في الترويج لها وفي تخليدها... وإيمان بضرورة مواكبة عجلة التاريخ لما تطل علينا من خلال دورتها المستمرة دوحةٌ وارفةٌ من حين لآخر حتى لا يبقى نظرنا أسير الأفذاذ السابقين.. وهو للأسف ما يجري عندنا ا حتى أن إيماننا بعبقرية الشابي والمسعدي جعلنا نغفل عن وضع من جاؤوا بعدهما من المبدعين في المنزلة التي تليق بهم وان نولي تجاربهم ما يليق بها من التفحص والإهتمام.. هذا ما جعلني أتساءل دوما كلما راج الحديث عن إصلاح التعليم العمومي في بلادنا : لماذا لا نجد نصوص آدم فتحي ونور الدين صمود والصغير اولاد احمد ومحمد الغزي وسوف عبيد وغيرهم من شعراء الراهن التونسي في الكتب المدرسية وفي برنامج التعليم الثانوي والجامعي ؟ هل تعمدت السياسة التعليمية عندنا ترسيخ فكرة ان الإبداع الجيد عندنا توقف مع الشابي والمسعدي؟..

أن ما يُحمد في تونس الآن هو أن حركة الإبداع الأدبي عندنا دافقة بعدُ ومازالت رغم كثرة المعيقات وتقهقر الأوضاع السياسية والاقتصادية مع تقدم الزمن وخاصة رغم تقلص دعم الدولة للثقافة.. وما يُحمد أيضا هو إنجاز هذه الندوات التي تعرّف بمن أضافوا إلى مدونتنا الإبداعية في الفترة التاريخية الراهنة وهم في الأثناء يشقّون سمْتَا أن لم نقل اسماتا للكتابة الشعرية الحداثية في واقعنا الراهن.. وهنا نحمد أيضا إدراج اسم الشاعر سوف عبيد ضمن هذه الندوات وهو الحقيق بذلك لما ميز تجربته الشعرية من ثراء كمّي ونوعيّ وتفرد وانغراس في التربة التونسية ولما حبا به الأدب التونسي عموما وادب مرحلة الحداثة (و ما بعدها) خصوصا من اهتمام ودراسة وتوثيق وتأريخ سواء في كتاباته النقدية أو في المجالس الأدبية لاتحاد الكتاب ولجمعية ابن عرفة التي يشرف عليها منذ عقود.. فكانت إضافته إلى الحركة الإبداعية بذلك مزدوجة إذ اثرى المكتبة الثقافة التونسية وكذلك العربية برصيد لا بأس به من المجاميع الشعرية (11 مجموعة) وبكتابين شاملين في النقد الأدبي سلط الضوء بين دفاتهما على عدة تجارب شعرية ونصوص لمبدعين تونسيين وعرب معاصرين وقدامى.. وخاصة بكتاب « صفحات من كتاب الوجود» الذي اخرج فيه قصائد الشاعر ابي القاسم الشابي النثرية إلى الوجود بعد جمعها وتحقيقها وترتيبها والتعمق في ملامحها الأدبية..

لذلك خيرت تناول هذه التجربة الثرية والمتنوعة من جانبين وعبر مرحلتين :

_ سوف عبيد الشاعر في زمن الحداثة.. حيث أحاول التعريف بكتاباته الشعرية ادبيا مسلطة نظري أساسا على ابرز السمات المميزة لجمالية الكتابة لدى شاعرنا.. ثم

_ سوف عبيد الناقد والمؤرخ لأدب زمن الحداثة وما حاذاه حيث أحاول التعريف بكل من كتابيه النقديين : ". .... و«الضفة الثالثة» وكذلك «صفحات من كتاب الوجود» ألذي جمعه وحققه وبوبه من حيث منهج القراءة النقدية الذي توخاه والتأليف وخلفياته الأدبية وأهم المحتويات..

مع العلم ان اقتصاري على هذين الجانبين المحددين بما توفر بين يدي من المصادر «ديوان سوف عبيد عن دار الاتحاد للنشر والتوزيع _ تونس 2017 إلى جانب العناوين المذكورة سلفا» قد يقصر عن الإلمام الدقيق بتجربة هذا الأديب الذي تجاوز نشاطه الأدبي ما ذكرته خاصة في دعم الأدباء والكتابة عنهم والتعريف بهم سواء في مجالس الأدب بجمعية ابن عرفة أو على مواقع الإنترنت والتواصل الاجتماعي (موقع المثقف مثلا..)

سوف عبيد الشاعر في زمن الحداثة..

في رصيد شاعرنا من الإصدارات الشعرية ما يلي ذكره على التوالي : الأرض عطشى (سنة 1980) نوارة الملح (1984) إمرأة الفسيفساء (1985) صديد الروح (1989) جناح خارج السرب (1992) نبع واحد لضفاف شتى (1999) عمر واحد لا يكفي (2004) الجازية (2008) حارق البحر (2013) عاليا بعيدا (2015) واحدان (2016).. بمعدل كل اربع سنوات إصدار..

والجدير بالملاحظة أن الشاعر بدأ الإصدار بعد مسيرة غير هينة مع الكتابة اي بعد نضج التجربة وامتلاك ناصية الإبداع كما ينبغي وكذلك ان باكوراته تزامن إصدارها تقريبا مع مؤتمر الشعر التونسي الحديث (الحمامات 1981).. فنستنتج بذلك انه كان على خطوات ثابتة ورصينة في خياراته الإبداعية المنسجمة مع نهج الحداثة الذي رسخته خاصة مخرجات المؤتمر المذكور وإن كان

قد بدأ النشر في الصحف منذ سنة 1970 معاصرا لجيل الطليعة الأدبية وشاهدا على مسار تحولات الشعر التونسي خلال أربعة أجيال وأكثر حسب ما صرح به في حوار أدبي أجراه معه الأديب الأستاذ عبد المجيد يوسف.. فنحن اذن إزاء تجربة شعرية عمرها نصف قرن من الزمن.. تزامنت مع المسارات التي عاشها الشعر التونسي منذ تنشق رياح الحداثة (اذا اعتبرنا منتصف القرن 20 المنطلق الفعلي لحداثة الشعر العربي مع ظهور الشعر الحر على يد كل من بدر شاكر السياب ونازك الملائكة.. وهذا في الحقيقة موضوع لا نذهب إلى التسليم المطلق به)

ولعل المؤثرات الحضارية عامة والثقافية خاصة لهذه الفترة هي التي نحتْ بخيارات الكتابة لشاعرنا المنحاز بطبعه وشخصيته إلى الحرية ثقافة وحياة نحو تبني الكتابة ضمن تصور جمالي ومهمة حضارية قوامها قيم الإنسان الحر الرافض للقوالب الثابتة والتفكير النفعي الضيق؛ الإنسان الداعم للقضايا العادلة وطنيا وكونيا دون انحدار بالشعر من علياء الفن والإنشاء .. **لذلك وردت كتابته الشعرية في تنوعها عبر مختلف مراحلها متحررة من قيود المعتاد لغة وموقفا.. توجِد ابدا صلات جديدة بين الإنسان والكون على وجه العموم وبين شاعرنا وذاته ومحيطه على وجه الخصوص.. وتنزع أبدا منزع التجريب متحاشية التعاود متجاوزة الشكل إلى شكل آخر والرؤيا إلى رؤيا أخرى تولد الكتابة من الكتابة والفكرة من الفكرة.. تروم التجديد وتنفرمن الترديد في سيرورة لا تتوقف وبمحاذاة عفوية وخلاقة للواقع تنطلق منه ولا تحاكيه..

هكذا خاض شاعرنا مغامرة الكتابة الحديثة في مختلف تلويناتها فلم يذر طريقة من طرق النظم والتدبيج الا جربها ولا فكرة أو موضوعا أو ظاهرة الا عبر عنها وقصدها..

ساعده على تحقيق ذلك رصيد معرفي ضخم في الفكر والأدب والمعلومات العامة اكتسبه من مطالعاته الشاسعة.. وتجربة عريقة في تنشيط النوادي والتظاهرات الأدبية والمشاركة فيها فضلا عن تجربة حياتية حافلة.. وهذا يبين صداه جليا في قصائده الغنية بالمعلومات المرجعية في التاريخ والأدب والأماكن والعواصم والعبارات القرآنية والأساطير وحتى العادات والتراث الشعبي..

هذا وإن شاعرنا لم يخرق المسارات العامة لقصيدة النثر رغم خصوصية كتابته لها.. وجاءت مجموعاته الأولى : «الأرض عطشى» و«صديد الروح» و«جناح خارج السرب» و«نبع واحد لضفاف شتى» جميعها بالملامح العامة لقصيدة النثر ؛ أن أردنا تصنيفها؛ منخرطا بها ضمن مسار حداثي تونسي الطابع مجسدا قناعته بأن الإبداع يفقد بداعته اذا سيجته القوالب الشكلية .. ومع مجموعة : «عمر واحد لا يكفي» التي صدرت في بداية الألفية الثانية عاد إلى الشعر العمودي يستقي منه تجربة مختلفة وأكثر ثراء وتنوعا مجسدا قناعته بأن التجديد يمكن أن ينحى منحى الإحياء والعود على بدء بروح معاصرة وانه (لا يتنافي مع القديم الموزون المقفى بل انه تطوّرٌ منه واستمرارٌ له بما ان الشعر أوسع من الأشكال التي لا يمكنها وحدها تحديد نوعه وكنهه) والكلام للشاعر.. وكأنه بذلك أراد أن يجرب مهاراته في الكتابة العمودية خلال ظهور موجة العودة إلى العمودي التي كانت بمثابة رد اعتبار للقصيدة العربية بعد أن كثر المتطفلون على الشعر تحت مظلة قصيدة النثر والحداثة الشعرية...

وظل شاعرنا ابتداء من تلك المرحلة يكتب الشعر بمنثوره ومنظومه بطرق شتى تبعا لمقتضى الحالة الشعرية والدفقة الشعورية التي تلم به.. متوسلا بلغة سلسة تجمع بين يسر المعجم

وأناقته وثراء التركيب وكثافة ممكناته التعبيرية جاعلا من تلك السلاسة منفذا لجمالية التعبير وعمق الدلالة.. حتى عده الأستاذ عبد المجيد يوسف (مهلهل الشعر التونسي) في حين أن البساطة عنده (لا تعني السطحية الجوفاء) وان الفصاحة الحقيقية تعني (ترتيب مفردات مفهومة وفق نسق خاص له دلالات عميقة).. ومع ذلك فإن القصائد لم تخل من المفردات العريقة تلقي عليها ظلال الأصالة والفخامة..

نجده مثلا قد كتب وبلغة بسيطة (أو مهلهلة على حد تعبير عبد المجيد يوسف) في قصيدة (الحذاء.. من الأرض عطشى.. ص13) :

جاء الربيع
سيشتري حذاء
جاء الصيف
سيشتري حذاء
جاء الخريف
سيشتري حذاء
عندما انقضى الشتاء
تعلم المشي حافيا..

فإذا بالمفردات البسيطة في الكلام اليومي تحمل قضية اجتماعية أو رؤيا أو موقفا من خلال قدرته الفريدة في ترتيبها ورصفها على نحو محدد يخول لها هذا العمق وهذه القوة في التعبير بشكل لا يعرف سره الا الشاعر.. هذا من ناحية..

ونجده من ناحية ثانيه وبلغة مغايرة تماما قد كتب مثلا في قصيدة :(إنطلاقة.. من امرأة الفسيفساء.. ص51)

انطلقي.. كالعاديات ضبحا

كالمغيرات صبحا
جامحة كاسحة... إلى أن يقول..
إنطلقي نفتحْ مدنا
نرسمْ وطنا
والنسغ للورق...

فتبدو اللغة في هذا الضرب من الكتابة على أناقة مهيبة بما تضمنته من مفردات القرآن والشعر القديم ولا تخلو من صبغة استعراضية تكسب التعبير بريقا والدلالة قوة زادها أناقة حرص شاعرنا على تنميقها بالوان الطباق والتجنيس والترجيع بشكل أسهم في إغناء موسيقاها الداخلية مثل ما ورد في قصيدة (المدينة الجديدة.. من حارق البحر ص 191)

حسنا انك قد وصلت إليها الآن
ليس لديك ما تخشى عليه في زحامها
جيب اليمين.. خواء
جيب اليسار.. خلاء
لا أحبة.. لا أصدقاء
ما في جيب الصدر.. إلا قلم...

كذلك في(قصيدة : الزورق الورقي ص181 حارق البحر)

هي في البحر.. هو في الحبر.....
زورقي ورقي
حملت فيه كل ما كان
وكل ما سوف يكون....

وهو بين هذه الطريقة في تدبيج اللغة وتلك؛ مولع بالتفاصيل بشكل يؤكد انغماسه فيها ضمن تجربته الحياتية يلتقطها من رصيد مطالعاته الضخم ومما يحيط به في الواقع من ملامح المجتمع

ومشاهد الحياة أينما حل..و يشكل منها بطريقته الخاصة في التعبير كونا شعريا خلاقا ..

فنجد مثلا قوله في قصيدة : (الرحى.. من صديد الروح ص71)

حفنة حفنة
القمح ينهمر
يسحقه حجر
حفنة حفنة
الدقيق يمضي
يسقطه الغربال
الفتى ناعس
تهدهده شنشنة الفضة
في معصم البلور يدور
عندما القمح انتهى
أفاق الفتى.. بعدما العمر انقضى
وجد نفسه.. في قلب الرحى..

فتختزل التفاصيل كما رتبها شاعرنا حياة بأسرها بين الحنين إلى بساطة البدايات والاستياء مما آل اليه الراهن من تعقيدات..

ومن روائع هذا المنحنى في توظيف التفاصيل قصيدة (زهرات المرمر.. من واحدان.. ص239)

فكان توظيف التفاصيل البسيطة في قصائد شاعرنا ضربا من ضروب التعجيب أو ما اسميته « فنتازيا البساطة» المبتكرة في التعبير الجمالي والتي تعددت طرقها وتنوعت تبعا لحرص الشاعر على التجريب المستمر في التعامل مع اللغة .. تراوغك تخريجاته وتخاتلك فتدهشك أو حتى تصدمك احيانا بما لا يمكن حتى أن تهيء له فهمك الكتابة.. وذلك :

* إما عبر الانزياحات الكاسرة لمنطق التوقع الفاتحة لإمكانات شتى من ملاحقة المقاصد خاصة على مستوى أقفال القصائد التي تتدرج بالملفوظ والمدلول فتغير تماما مجراهما فجأة وتكسر المتوقع الممكن لفهم النص مثل ما ورد في قصيدة: (اليوم الثامن.. نبع واحد لضفاف شتى ص 127)

لو كنت متسولا لوفقت
عند المقبرة.. يوم الجمعة
عند المسرح.. يوم السبت
عند الحديقة.. يوم الأحد
يوم الثلاثاء.. ابكم أمام عمياء.....
لو كان في الأسبوع يوم آخر
لمكثت عند نافذتها
طول العمر انتظر...

هكذا يخاتلنا النص فينتقل بنا من مسيرة متسول عبر جدول ايام الأسبوع الي مسيرة عاشق يتسول الوصل.. وهو في الأثناء يثير فضولنا بقرينة غامضة (يوم الثلاثاء.....) ؛

* أو عبر تناسل المرجعيات المعجمية والتراكيب وتعالقها بشكل خول للشاعر تفجير طاقات تعبيرية هائلة مولدة لإيحاءات متعددة الأبعاد (الزورق اكبر من البحر : ص 25 نوارة الملح)

في الصوت شجن
شجن في المطر
مطر على الشجر
شجر في المدن
مدن في الوطن
وطن في العفن

إذن.. لك الآن إن ترحلي....

ثم تنفتح القصيدة بعد هذا على مستويات أرحب من التناسل التركيبي... من شجن الصوت / الذات إلى محنة الوطن إلى محنة الحضارة في مدننا العريقة الي محنة الإنسان في الوجود.. وهنا أدرج مما تعالق وتجانس من تركيب الحصر قوله في نفس القصيدة:

طوبى لليد التي ما تلطخت
الا بالحبر
وما علقت الا بذؤابة شعر
وما امتدت الا
لتلقى الأحبة بالسلام...

وهناك قصائد عديدة على ذات المنوال مثل (قصيد الحساب أيضا ص 68 صديد الروح..... وقصيد الجسد : ص 24 نوارة الملح...)

* أو أكثر من ذلك عبر ما نجده في قصائد شاعرنا من تناسل الصور الشعرية من معين استعاري واحد تتعدد جزئياته ثم تتوحد في تشكيل للمعنى مترامي الأبعاد وذلك في نوع طريف من النصوص يمكن أن نسميه «القصيدة الإستعارة « وهي كثيرة في مجموعات شاعرنا ورد أغلبها في شكل قصيد قصير أو ومضة.. مثل : (الشطرنج : ص 72 صديد الروح.. من كتاب الحيوان : ص92 حارق البحر... النخلة: ص 45 امرأة الفسيفساء.. البرتقالة والسكين ص 142 عمر واحد لا يكفي)

(الوردة : ص 80 صديد الروح)

انا الراحل من بلد إلى بلد
راقتني في طريقي وردة
يانعة حمراء تتقد

أقطفها.. قلت كلا
حرام يلمسها احد
عندما وصلت إلى المحطة
لقيتها أمامي ذابلة
من يد ليد..

فكانت الوردة هنا استعارة بمواصفات إنسانية وأبعاد إجتماعية وربما حتى قيمية وفلسفية..

ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأن شاعرنا وان تفرد في ما سلف ذكره من تجريب للتقنيات التعبيرية فهو لم ينأ عما درج عليه لداته وأبناء جيله من الشعراء من ألوان الانزياح اللفظي والتركيبي والأسلوبي والبلاغي التي تقتضيها حداثة الكتابة في زمننا.. وكذلك من توظيف لضروب التضمين والإقتباس والرموز الأسطورية والتراثية والقرآنية مرسخا كتاباته في سياقها الثقافي والحضاري فحضرت في كتاباته مرجعيات من قبيل عروس البحر وزرقاء اليمامة وشهرزاد والجازية وبوسعدية وغير ذلك من الرموز التي تمثلها شاعرنا برؤياه الخاصة.. فمثلا في قصيدة : (شهرزاد الثانية ص 262 واحدان)

ألا.. ما بعيني رقاد فمرحى لنا يا سهاد
شجوني حرير المساء تعطرها شهرزاد.....
ألا يا نجوم الليالي أ في نجمكن نفاد
أسائلها فأجابت ببسمتها شهرزاد
نعم ذاك درب النضال وبالعزم يأتي المراد...

فكانت شهرزاد في هذا التمثل مغايرة لشهرزاد الحكايا .. هي التي تسمع شكوى الشاعر/ شهريار وتشد على رؤاه في الشعر وفي النضال الوطني..

وكذلك في قصيدة : (الجازية ص 159) التي لم تكن سيرتها الملحمة كما تمثلها الشاعر الا سيرته في الحياة متقاطعة مع ملحمة حضارة وأمة..

* وتعد كتابة الومضة أكثر مجال أخضعه شاعرنا إلى التجريب باحثا عن طرق جديدة ومنوعة في كتابة هذا النوع من النصوص التي رشحت بها مختلف مجموعاته الشعرية مسجلا تفرده في تجويد التكثيف والإيجاز .. فكتب الومضة القائمة على الإيجاز البلاغي: (الشجرة : ص 144 عمر واحد لا يكفي)

هي الجذع والفرع مشتبكان
كمثل الحبيبين يعتنقان
ألا ليت أولئك العاشقين
جميعا تلاقوا بذاك المكان..

فيجلو التشبيه بنوعيه البليغ والتام بعدا يخرج عن مستوى البيان إلى مستوى الإيحاء بملامح وجودية للشجرة تسمو بها نحو أعلى مراتب الحب والخصب والحياة..

ونجد الومضة القائمة على الإيحاء الرمزي برؤيا فلسفية أو موقف فكري أو اجتماعي أو حتى سياسي.. وقد صيغ هذا النوع بجودة عالية تكاد ترتقي به إلى مصاف المقولات المأثورة وكأنه خلاصة تأملات وتجليات لحقائق تنشد الإطلاق.. ومثل ذلك كثير في مجاميع الديوان.. منه :(الفاتحة.. حارق البحر ص173)

إذا كان العطر فواحا
لا يهم
شكل الزجاجة..

أو :(التاج.. جناح خارج السرب ص104)

المصارع الأنيق

يغادر الحلبة
قبل أن تدوسه
حوافر الثيران..

وكذلك نجد الومضة ذات الصياغة الهايكية (نسبة إلى الهايكو) في استلهامها من الطبيعة وفي مروقها عن الترتيب المتعارف لمكونات الجملة.. مثل :(العنكبوت.. عاليا بعيدا ص231)

مرحى للعنكبوت
خيطا.. خيطا
يتقصى انثاه.. حتى يصل إليها
ثم بعد الوصل يموت..

كما نجد أيضا الومضة ذات الصياغة السردية المخصوصة في تقاطع مع القصة القصيرة جدا.. ضمنها الشاعر مواقف ووقائع وحالات إما لعمقها أو لطرافتها قد تكون لفتته أو عايشها مثل (كانون.. واحدان ص265) التي أنشئت على بناء عمودي أوجز في أبيات ثلاثة ما قد ينظم في عشرات الأبيات..

في مساء مؤنس رغم برد ومطر
قد تدفأنا الصفا وقطفنا من ثمر
يا لها من متعة أذهبت عنا الكدر...

هذا التجريب الباحث قدما عن خلق جديد من مشيمة اللغة رافق شاعرنا أيضا في مواضيع كتاباته التي لا يمكن حصرها أو تحديد مجالات دلالية لها .. فهو كتب كما اسلفت عن كل ما يمكن أن يخطر بالبال وكل ما لا يخطر من أمور ذاتية وموضوعية سواء عايشها أو شهدها أو كتب عنها غيره ..

* ابتداء من حياته الشخصية وعائلته بمن في ذلك سلفه وخلفه مثلا قصيدة :(رمضان أبي.. عاليا..... بعيدا ص 212)

وقصيدة : (وائل.. عاليا.... بعيدا ص 218)

على شوكة الانتظار وقفت مع الواقفين وبين الوفود
وفي قلق أشرئب بعيني ترى سألقاه حقا حفيدي
ترى هل كمثل التصاوير حسنا ابي قد رأيت وفيه جدودي
وفيه بهاء زياد صبيا ببسمته تلك تحيي عهودي..

* مرورا بمغامراته ورحلاته والأماكن التي زارها والمدن التي استهوته ولم ينج من غوايتها.. منها غمراسن الجذور وما أحاط بها من حنين واعتزاز اذ كتب فيها : (غمراسن ص215 عاليا.. بعيدا)

غمراسن.. بوصلة القلب..
تشير إليها جنوبا
ولو أن الشمال مفاتن
غمراسن.. البدء والمنتهى
مهما توالت مواطن..

وكذلك تطاوين وتونس العاصمة بمختلف أبوابها العتيقة ورادس وبيروت وبغداد وباريس التي أفرد الشاعر لها قصيدة نثرية قوامها البناء المقطعي المرقم مجربا نوعا من انواع البناء لقصيدة النثر شاع خاصة مع الجيل الثاني من رواد الحداثة.. وقد جعل كل مقطع من القصيدة يشكل مشهدا أو موقعا من مواقع باريس رسمه الشاعر من خلال زاوية نظره وتأملاته الخاصة (باريسيات ص 254 واحدان)

على جسر نابوليون
عبر نابوليون عند تدشينه
ومن يومئذ.. ليلا نهارا
يعبر الفرنسيون والفرنسيات
والسائحون والسائحات

ومرت السنوات
ولا أحد يذكر ذاك الثائر
من على الجسر ألقي به
وهو يهتف.. تحيا الجزائر..

* وصولا إلى الإلمام بمراحل مشواره في الحياة بكثير من التأمل والتفكر في الإنسان ومنزلته الوجودية حينا وبمنزع صوفي روحاني حينا آخر .. فها هو في مطولته العمودية : الخمسون ص 177 حارق البحر) يراجع مشوار حياته ويقيمه :

هذه الخمسون تطوى مثلما يطوى الكتاب
صفحات.. ذكريات قد توالت وانسياب
قد حسبت العمر عدا فانتهي صفرا حساب

وها هو يتأسى بوفاء المحفظة عن حسرته لفراق مهنة التدريس عند استلامه رسالة إعلامه بالتقاعد في قصيدة (المحفظة ص214 عاليا.. بعيدا)

أ محفظة العمر عذرا ففيك شجون الفؤاد وهذا اليراع
وفيك كراريس شعري ونثري وفيك تصاوير من هم ضاعوا
وفيك هي الضاد نقش بقلبي فمنها سرى دمنا والرضاع
رشفت هواها على كل آي وبيت فنبضي لها والنخاع
على العهد نبقى لكل وفي فليت الوفاء لدينا يشاع..

هذه التأملات تنوعت ومثلت مشغلا هاما في مدونة شاعرنا.. فنجده تأمل العلاقات بين البشر وتغيرها وانحسار الوازع الإنساني عنها مبديا استياءه مما ترتب عن ذلك من تباغض وتحاسد وتحاقد ورد خاصة في مطولته :(الخمسون ص 177 حارق البحر)

رب ذئب قد دعاه. انتزاح أو خراب
لا كمن قلت صديقي وهو في الظهر حراب

سلها للطعن يوما وانزوى عني الصحاب
كالنعامات ودست رأسها أخفى التراب
كم زرعت الورد فيهم فإذا الشوك ثواب..

كما تأمل الوجود ومنزلة الإنسان فيه بين الحياة والممات وتأمل الموجودات مستنطقا رؤاه مسلطا عليها من الأبعاد الفكرية والوجدانية ما يجعلك تقاسمه اياها كما يراها في عدة قصائد: (الكروان والعنكبوت والسمكة و.. الجمل.. صديد الروح ص 67)

أيها الجمل.. الأحمال تنوء بك
ليست لك..
من التمور لك.. بعض النوى
لهم الهوادج والواحات
ولك النياق والصحراء..

منها ما ضمنها أصداء الذات كقصيدة :(الصورة القديمة ص 176 حارق البحر) التي ورد فيها :

عام يلاحق عاما لا نوقف الدهر قط
ساعاتنا بالثواني يا ليت قد صح ضبط
في مثل هذا الزمان كل الحسابات غلط..

ومنها ما ضمنها أصداء الوجود مثل ومضة: (حصاد ص 91 صديد الروح)

ويحها السنبلة..
كلما نمت أكثر
كلما اقتربت من المقصلة..

وللروحانيات في تأملات شاعرنا منزلتها وجماليتها إذ حرص على تجويد تدبيجها وحسن تخريجها على بناء عمودي ولغة فاخرة

وايقاع بالتنغيم زاخر.. سواء منها التي كتبها في الوجد الصوفي ومنها ما ورد في الذكر ومدح الرسول مثل قوله في: (القصيدة المنورة ص 197 حارق البحر)

وحدث ربوع الحجاز حنيني وسرب الطيور لتشدو هيامي
إلى نخل طيبة أوصل شجوني وأنزل دموعي كمزن الغمام
على روضة من رياض الجنان تراها تحلت بخير الأنام....
فوزري ثقيل.. حسابي طويل وأرجو رحيما وأندى الكرام
على الله حسبي وإني اصلي على المصطفى وهو مسك الختام

علما وان هذه القصيدة وردت في آخر المجموعة الشعرية المذكورة ومثلها وردت قصيدة المشكاة التي تضمنت ذات الموضوع في آخر مجموعته «واحدان» حتى تكون هذه النفحات النورانية مسك الختام لإصداراته الشعرية إلى حد الآن..

* وها هو إضافة إلى ذلك يكتب عن الشعر بالشعر في عدة قصائد ضمنها نظرته إلى الكتابة وإمتاعها وكبَدَها كتجربة جمالية وكرسالة حياتية تتوق أبدا إلى الحرية منها الزورق الورقي ص 181 حارق البحر) ومنها أيضا :(بالدم الأزرق ص 128نبع واحد لضفاف شتى)

كلماتي موجة
إذا انكسرت على السواحل
صارت زبد..
تنشأ من البدء في العمق
ثم تمتد وتمتد..
بعث وفناء..
فناء وبعث.. إلى الأبد..

وكثيرا ما نجد لهذا الموضوع أصداء مبثوثة هنا وهناك في القصائد ذات الرؤى المداخلة مثل ما ورد في قصيدة شهرزاد الثانية ص 262 واحدان)

زرعت قصائد عمري. فأدمى يدي الحصاد
هو الشعر حبر العيون جبال بكت ووهاد
ورب دموع لصخر. فقد أن حتى الجماد...
أسائلها فأجابت ببسمتها شهرزاد
نعم.. ذاك درب النضال وبالعزم يأتي المراد..

فإذا الكتابة بما تستوجبه من بحث وتأسيس ومتابعة ومراجعة... نضال وتضحية وهو لا يقل أهمية عن نضال الميدان.

* بل إننا نجده كتب حتى عن كل ما كان يحيط به في اليومي من حياته ومن معالمها الحضارية البدوية والمدنية كلها فحضرت فيها (النارجيلة..و المدفأة.. والثلاجة..و السيجارة..و البرنس..و المحطة..و القطار.. والشجرة.. والخزانة.. والرحى وكمنجة زكرياء القبي.. والقلم الذهبي الذي اهدته إياه زوجته ذات مناسبة....)

* إلا أن أكثر ما يستوقفنا في مدونة شاعرنا قصائده ذات الحضور المميز كما ونوعا في الحب وفي الإلتزام..

قصائد الحب تلك التي تضمنت نظرته الي العلاقة بين الرجل والمرأة كمقوم أساسي من مقومات الحياة وسعت كل أحوال العشق واهتزازاته والشوق واضطراماته والوصل وتقلباته وحضرت المرأة ضمنها في مختلف وضعياتها الإجتماعية والنفسية والوجدانية والحسية دون أن تشف اللغة عن مواصفاتها الجسدية الا كأبجدية رمزية اثثت الصور الشعرية واغنت ابعادها الإيحائية.. وشاعرنا في كل ذلك يرتقي بالمرأة والحب كما الرومنسيين إلى أسمى المراتب

الوجدانية والقيمية حتى في غزلياته ذات المضمون الشبقي.. فنجده مثلا في قصيدة إمرأة الفصول ص 127 نبع واحد لضفاف شتى) يضع الحبيبة صنوا للوجود والحياة المثلى :

زرقاء.. نظرت إلى الرمال
صارت الكثبان امواجا
ومن الصخر ترقرق جدول الماء..
خضراء.. مشت خطوتين على السبخة
صارت الأملاح أشجارا.....
اذا ابتسمت.. تنتشي كل الأشياء
حمامة.. تنقر الحب في كفي
ثم تذبحني من الوريد إلى المزيد
وتقول لي.. مع السلامه..

وهو في نوع آخر من الكتابة الغزلية يحلق نحو أمداء نشوة الوصل بجرأة في غاية الشاعرية والرقي.. مثل قصيدة :(زهرة التوليب ص232 عاليا.. بعيدا)

الليلة.. في أوج الربيع
زهرة من زهرات الحديقة
باتت تحت ضياء القمر
يرشها عشقا وشوقا
حتى مطلع الفجر
عندما الشمس وخزت وجنتيها
أفاقت.. فإذا بياض على احمرار
يبلل تاجها..

وبين هذا وذاك يبدو شاعرنا دوما مجلا للحب اكسيرا للحياة مغرما بالمرأة محتفيا بها كباعثة للبهجة والسعادة على شاكلة شعراء

الغزل المرح حينا مثل قوله في قصيدة :(زهرات المرمر ص 239 واحدان)

نقرات المطر على زجاج النافذة
قطرات لؤلؤ.. تنهمر على خد أسيل
ووقع كعبها الصاعد..
على مرمر الدرجات..
تِك تَك تك تك....
عندما التفتت تودعه
تفتحت على درجات المرمر
زهرات على إثر خطاها..

وحينا آخر منحازا إليها متعاطفا معها في حال غبنها أو عنائها على شاكلة القباني وشعراء الحداثة مثل ما ورد في قصيدة :(العسل ص 78صديد الروح)

بعد شهر العسل بقليل
الحناء تتفسخ.. تميل إلى البياض
الأظافر المقلمة اللماعة
تعود إلى المكنسة وحبل الغسيل
بعد شهر العسل بقليل
الدوار.. الغثيان..
الثياب تضيق قليلا.. قليلا
ويصبح العسل
في مذاق المرارة..

وأما قصائد الإلتزام تلك التي واكب فيها مجريات الشأن العام ومختلف القضايا الوطنية والقومية فقد وسعت مواقفه العادلة المعتدلة بمنأى عن التطرف والتعصب والعدوانية كما وسعت

مواكبته الواعية بتقدمية ناضجة للأحداث والأوضاع الاجتماعية والسياسية والأمنية في الداخل والخارج.. وهو أثناء ذلك لا ينزل بالشعر من علياء الفن إلى أرض الشعارات ولا يحمل الخطاب الأدبي مفردات البيان السياسي مما حقق جمالية الانشاء في النزعة الالتزامية بدرجة تفوق حتى جماليته في النزعة الوجدانية وهذا نتبينه في عدة قصائد منها :

_ (الشمس على جبيني ص13 الأرض عطشى)

يا شمس..
حبة قمح أو شعير.. ليت أني
أو صابة زيتون
في وادي غير ذي زرع...
يا جفاف إفريقيا وآسيا
انا غاطس في عرقي..

وفيها أبرز قسوة المفارقة الجائرة في المنطقة العربية وأفريقيا بين وفرة الثروات الطبيعية والبشرية وفقر الحياة وتدني مستوى العيش.. ومنها ايضا : (بالأحمر على الأبيض المتوسط.. واحدان ص 252)

_ اهنؤوا بالصيف على السواحل
بالمهرجانات والأسفار.....
هنيئا بالوطن نفديه
من أجل كرة القدم
وغزة صباح آخر من حصار
وموجة أخرى من دم..

هذه وقصائد أخرى انشغل الشاعر فيها بالقضية الفلسطينية قضية إنسانية عادلة وقضية من قضايا الوجود العربي المستهدف من

الداخل والخارج .. فكتب عن مصر ونيلها وعن العراق وبغدادها : (خيول الإفرنج ص35 نوارة الملح)

خيول الإفرنج تهوى التزحلق
على الرمال..
ترتوي من آبارها في الصيف
تتمرغ على دفئها في الشتاء..
اهرامات الجيزة يقطر منها
مع التاريخ.. عرق العبيد
سلاسل الأطلس توثقها السلاسل..

وكتب خاصة عن تونس التي بدأ معتزا عميق الإعتزاز بل متشبثا كل التشبث بانتمائه اليها فجاءت قصائده مترعة بروح تونسية خالصة في حضور لهجتها المحكية في بعض القصائد : (رحمة الوالدين ص 194 حارق البحر) التي أهداها إلى روح امه رحمها الله..

توحشت حتى خلالك وحرامك
كي تجيني فاوحات انسامك
مرة نسبقك ومرة نحاذيك
ونتبع خطاويك.. خطاويك بالحنة
وسفساريك الأبيض
ابيض من الفلة..

وفي موروثها : قصيدة (الأغنية اليتيمة ص 219 عاليا.. بعيدا) التي مثلت صياغة شعرية فصيحة لأغنية تراثية من اغاني البوادي التونسية والشاعر مغرم جدا بتلك الاغاني العريقة إلى حد بدأ أثره جليا في شعره.. تقول الأغنية :

نوصيك تلقى الخير كانك عازم

وكل من صحب صاحب فراقه لازم
ويقول شاعرنا :
يا من عزمت على الرحيل
صاحبتك اشواقي
فمهما طال بين الأحبة التلاقي
لا بد يوما من الفراق..

وكذلك في مرجعياتها وأساسا في مضامينها التي عكست انشغال شاعرنا ومواكبته للاوضاع والوقائع في بلاده كبيرها وصغيرها ومما يستوقفنا في هذا المجال قصيدته التى جسدت هم المواطن التونسي البسيط في مختلف اوجهه (ثلاثية عبد الله ص 110 جناح خارج السرب)

حبب إلى عبد الله من الدنيا ثلاث
براد الشاي.. إذا انتصب على الكانون
واولاد عبد الله من حول عبد الله يمرحون
الجازية مخبلة في شعرها بالحناء
وتلوح من وشمتها الخضراء....
عبد الله بكى في ثلاث
يوم موت أمه
وعندما صادرت البلدية عربته
يومها أحس أن تونس اوحشته
وبكى فرحا
ليلة زلزل صاروخ الحسين تل أبيب..

وكذلك في تدهور احوالها خاصة بعد أحداث 2011 وما تلاها.. وهنا يجدر بنا التوقف خاصة عند قصيدتين هما : (الزورق اكبر من البحر ص 25 نوارة الملح)

من أين تدخل تونس سيدي؟
باب الخضراء قوس نصر للأغنياء
وطابور للفقراء
باب البحر... لابحر فيه ولا موج
باب الجزيرة.. مراكبه لدى الافرنج أسيرة..
وقصيدة :(يسألونك عن الثورة.. قل ص203 عاليا.. بعيدا)

وقد أبدى شاعرنا من خلال قصائده وعلى امتداد مختلف مجموعاته الشعرية وفاء كبيرا ونبيلا ليس فقط لأهله وذويه ووطنه وقضاياه.. إنما لأصدقائه من الشعراء التونسيين والعرب الذين جمعهم به ميثاق الشعر وحتى أصدقائه من غير الشعراء فرثا الشهيد شكري بلعيد في قصيدة عصماء مؤثرة جدا واهدى العديد من قصائده إلى أعلام من أمثال بدر شاكر السياب وأمل دنقل ومحمد البقلوطي والمرحوم صالح القرمادي ورضوان الكوني وكمال العيادي ومحمد البدوي الذي خصه بملحمة : (الجازية ص 157) وهي قصيدة أجاد شاعرنا فيها حشد مختلف طرائق التجريب والتحديث في الكتابة شكلا ومضمونا .. فكان ان قاسم كلا من هؤلاء وآخرين كثر شيئا من جوهر المعنى وعرفان المودة وهو يصدر القصائد بأسمائهم..

هذا غيض تبينته من فيض ما حوته تجربة الشاعر سوف عبيد الشعرية الزاخرة بسمات الكتابة المتفردة والتي لا يكفي حيز كهذا للإلمام بمكنوناتها إذ أن كل خاصية فيها وكل قصيدة منها تستوجب بحثا موسعا وقراءات متنوعة انطلاقا من مداخل متعددة.. (و قد اعتمدت فيها مصدرا وحيدا هو « ديوان سوف عبيد" الذي نشر عن دار الاتحاد تونس 2017)

اما المرحلة الثانية في هذا التقصي فقد انشغلت فيها ب:

تجربة سوف عبيد النقدية:

في رصيد اديبنا من الكتابات النقدية ما يكفي من الإنجازات لنعتبره ناقدا اضاف الكثير إلى الساحة الأدبية التونسية والعربية.. خاصة وان هذا الرصيد شمل تجارب كثيرة ومتنوعة لأدباء تونسيين وعرب من أجيال مختلفة .. فسوف عبيد إلى جانب إطلاعه الواسع على المدونة الأدبية عبر القراءة والمتابعة معا.. وإلى جانب نشاطه الأدبي الميداني بتونس وعدة بلدان عربية سواء في الملتقيات أو المهرجانات أو في إطار اتحاد الكتاب التونسيين وجمعية ابن عرفة.. فقد عاش حياته في قلب المشهد الثقافي التونسي بين النوادي الأدبية في المكتبات ودور الثقافة وبين المبدعين من سابقيه ومعاصريه ولاحقيه مما ساهم لديه في تكوين ملكة تذوق الأدب وتلمس خصائصه وتقييمه والمقاربة والمقارنة بين أفنانه.. فمكنه ذلك من إغناء المكتبة النقدية بثلاثة منجزات قيمة هي على التوالي :

_ حركات الشعر الجديد بتونس.. صدر في 2008 :

_ صفحات من كتاب الوجود : صدر عن بيت الحكمة 2009

_ الضفة الثالثة : قبسات من الشعر التونسي والعربي :صدر عن دار الاتحاد 2019

هذه المنجزات لم يكن فيها اديبنا ناقدا بالمعنى الأكاديمي العلمي المتبني لمنهج مدرسة نقدية محددة ولا واصفا للمادة الإبداعية

وصف التذوق والإنطباع المجرد بقدر ما كان له منهجه الخاص به في تفحص ما تناوله من آثار وخلفيته الدافعة به نحو غائية وظيفية لمساره النقدي..

فعند الاطلاع على كتاباته في هذا المجال يلفتنا أمران :

اولهما أن النقد لدى اديبنا لا يلتزم بمقاربة أو بمعايير موحدة في دراسة خصائص المادة الإبداعية وتقييمها إيمانا منه أن الأدب ظاهرة متحركة وليس سجين القوالب وبالتالي أن كل أثر لا ينظر اليه الا من خلال الرؤيا النقدية التي تتناسب مع جماليات المبنى والمعنى المميزة له..

وثانيهما أن الأدب التونسي له الريادة في التجديد وان الاعتقاد بتقدم الحركة الأدبية في المشرق عنها في المغرب خاطئ.. من هنا جاء اهتمامه بالتاريخ وحرصه على التوثيق للأدب التونسي..

وهذا ما أشار اليه الأديب الناقد بوراوي بعرون في مقدمته لكتاب "الضفة الثالثة "..

هكذا كان أديبنا يدرس الظاهرة الأدبية من منطلق الحرية والتفتح وعدم القبول بالمسلمات والنمط ومن منطلق البحث المتواصل عن الجديد المتجذر في الأصول .. وكذلك من منطلق إيمانه بالقيمة التاريخية للأدب التونسي ومكانته المتقدمة في المدونة الأدبية العربية..

** نجده في «كتاب حركات الشعر الجديد بتونس» قد ألم بجانب من مسيرة الشعر التونسي منطلقا من الإحالة على أن بدء العلاقة بين سكان شمال أفريقية وعرب الجزيرة الذي كان قبل الفتح الإسلامي وأن هذه العلاقة تجاوزت الرحلات التجارية لتشمل ايضا التبادل الثقافي وان اللغة العربية قد تكون وصلت منذ القديم إلى ربوعنا عبر الرسائل والشعر وكأننا به حاول اثبات عراقة تعامل الثقافة التونسية مع اللغة والشعر العربيين مما يجعلهما جزءا من تكوين الشخصية الثقافية للتونسيين..

وقد أولى اديبنا لنظرية ابن خلدون في الأدب والشعر خصوصا اهتماما كبيرا في هذا الكتاب كما في «كتاب الضفة الثالثة» أيضا

مبرزا طريقته العقلانية المتفتحة في دراسة الظاهرة الأدبية والتأريخ لها.. فساق تعريف هذا العلامة للشعر بكونه «الكلام البليغ المبني على الإستعارة والأوصاف المفصلة بأجزاء متفقة في الوزن والروي.» ليستنتج من هذا التعريف أن ابن خلدون تجاوز شكليات البناء و«مقولة الوزن والقافية في الشعر واقترح تعريفا بديلا شاملا يؤكد فيه على الأسلوب والصياغة من دون أن يهمل أهمية توافق المبنى والمعنى ثم يطبق نظريته على أعلام الشعر العربي فيخلص إلى أن الكثير منه لا يعد إلا نظما ولم يستثن منه حتى المتنبي والمعري))

وغاية الناقد من وراء كل ذلك إثبات وعي ابن خلدون بأن الإبداع الحقيقي وبالتالي الشعر الحقيقي لا يكون سجين الأشكال المسلطة والمسقطة وانه متجدد ابدا مع تجدد الظروف التي ينشأ في كنفها.. وهذا ما احتكم إليه الناقد سوف عبيد وهو يتناول الظاهرة الأدبية التونسية تاريخيا عبر دراستها في ارتباطها بسياق تاريخي شامل حرص دائما على البحث في معطياته.. من هنا جاء تدرجه الزمني وهو يدرس مسيرة الشعر التونسي منطلقا من تجربة الشاعر «سعيد ابو بكر» كأقدم شاعر مجدد في تونس من خلال ديوانه : (السعيديات الذي صدر في 1927) والذي تضمن قصائد غير عمودية ومهتمة بالشأن العام أورد بعضها.. ومنها أنقل :

جمعية الرفق بالنسور والديك
ماذا عن الرفق بالإنسان يلهيك؟
يرضيك عيشها والأمن فوقها
مرحى.. فهل عيشه في الضنك يرضيك؟
يلقى ابن آوى لديك المشفقين.. فهل
يلقى ابن آدم حظا في مساعيك؟

ولم يُغفِل ناقدنا تثمين ما لقيته هذه التجربة الجريئة في زمنها من انتصار بعض التقدميين المؤمنين بالتجديد في الشعر منوها بما قدمه الشيخ راجح ابراهيم من دعم نقدي لهذه التجربة..

كما لم تفته أيضا مقاربتها ومقارنتها بتجربة تزامنت معها تقريبا ألا وهي تجربة ابي القاسم الشابي التي افرد لها فصلا خاصا في كتابه المذكور محيلا على أن الشابي كان سباقا في كتابة القصائد النثرية وانه كتب بدوره في الشأن العام ومن بين الأمثلة التي اوردها الناقد اذكر :

البؤس لابن الشعب يأكل قلبه
والمجد والإثراء للأغراب
والشعب معصوب الجبين مقسم
كالشاة بين الذئب والقصاب..

وقد اردف دراسته لهذين الرائدين بعدة فصول تتبع خلالها التجارب الشعرية التالية لهما ابتداء من محمد البشروش ومصطفى خريف ثم صالح القرمادي وفضيلة الشابي وصولا إلى منور صمادح والميداني بن صالح ونور الدين صمود وهو حريص أثناء ذلك على إجلاء ملامح التجديد الأسلوبي والدلالي في مختارات من قصائدهم وعلى وضعهم ضمن مرحلة شعرية حقيقة بتسليط الضوء عليها.. إذ أكد على كونهم (شعراء الجيل المعبر عن مرحلتين هامتين في الحياة الأدبية بتونس.. هما مرحلة ما بعد الشابي ومرحلة ما قبل فترة التحديث والتجريب في السبعينات.. فهم يمثلون مرحلة الرومتطيقية في اخريات أنفاسها وبداية مرحلة الإلتزام ضمن المدرسة الواقعية الاشتراكية من ناحية وضمن الأبعاد القومية العربية من ناحية أخرى) مثبتا دوما أن كل مرحلة أدبية هي

بالضرورة وليدة مرحلة إجتماعية سياسية socio _politique وان نقد الأدب لا يكتمل بمعزل عن توثيقه والتأريخ له..

فكان هذا الكتاب بما شمله لبنة نقدية أولى مهد فيها الناقد للإشكاليات النقدية وتحسس ردود الأفعال تجاهها ليوضح في ما لحقه من مؤلفات رؤياه المتكاملة الجلية تجاه ظاهرة التجديد في الشعر التونسي..

** فكان أن أصدر : « صفحات من كتاب الوجود "بعد سنة تقريبا.. وهو عبارة عن بحث شامل جمع فيه الناقد قصائد الشاعر التونسي ابي القاسم الشابي النثرية والتي لم تنشر في ديوان اغاني الحياة وحققها بعد أن مهد لهذا المنجز في كتاب»حركات الشعر الجديد بتونس» في فصل خاص كما ذكرت سلفا.. مع العلم ان كتاب «الصفحات « لم يستند إلى عملية جمع وتحقيق عادية بقدر ما كان بحثا تاريخيا واستقصائيا ونقديا متكاملا لتجربة الشابي الشعرية برمتها..

فقد استهل الكتاب بفصل مدخل سلط الضوء على هذه التجربة بالنظر إليها من زاوية تطورها ونضج تمثلها لمحاولة المغايرة والتجديد قبل الشروع في كتابة قصيدة النثر مما اقتضي إرجاعها إلى مراحل ثلاث هي حسب ناقدنا :

_ مرحلة البدايات التي أرخ لها بسنة 1932 استنادا إلى رواية شقيقه محمد الأمين الشابي الواردة في مقدمة ديوان أغاني الحياة والتي نظم الشابي خلالها.. كتب (ص 9: مقطوعات وقصائد ذات سمات تقليدية واضحة تبدو منذ الوهلة الأولى في أغراضها ومعانيها كما تبدو في المعجم اللغوي والصور.. وهي محافظة إلى حد كبير على الصياغة العروضية للبحور الخليلية) واستعرض في الاثناء أمثلة من أغراض شعرية متنوعة متفحصا لها ومحيلا اياها

على المؤثرات الثقافية لعائلة الشابي وطبيعة تعليمه ومطالعاته ومقيما لطبيعتها الأدبية بعين الناقد الحصيف.. كتب (ص 13 : الشابي إذن في قصائده الأولى شاعر تقليدي بأتم معنى الكلمة)

وتوخى الناقد الطريقة الدقيقة ذاتها في الإحاطة بالمرحلتين :

_الثانية التي اعتبرها : مرحلة التجريب وأرخ لها ابتداء من 3 فيفري 1925 حيث نشر الشابي قصيدة تونس النادبة وهي قصيدة ممتدة على ستة وخمسين بيتا خرج الشابي فيها عن القافية الموحدة والأغراض المتعارفة وعن الأساليب البلاغية التقليدية في التعبير إلى (ص 14: التصوير والرمز والحكي لتعبر عن الوطنية في معاني الأمومة والمحبة والولاء والألم والأمل) وفي تقييم الناقد لقصائد هذه المرحلة نجده اعتبرها

وصلة الانتقال (ص 17: من مرحلة التقليد الصارم للنماذج القديمة البحث عن الآفاق الأرحب لنحت اسلوبه الخاص) وكذلك بالنسبة إلى المرحلة الثالثة :

_ مرحلة التحول حسب تسمية الناقد.. وقد أرخ لها ابتداء من 2 جوان 1925 تاريخ صدور قصيدة تونس الجميلة التي اعتبرها (ص 17: القصيدة المفصل نقرأ فيها علامات التطور الفكري والفني لدي الشابي)

وقد ربط الناقد هذه المرحلة بالتقاء الشابي بالنخبة المثقفة لما أصبح يتردد على المكتبة الخلدونية وكذلك بتبلور الحركة النضالية ضد الاستعمار الفرنسي والحركة النقابية وظهور فكر الطاهر الحداد مما كان له عميق الأثر في فكر الشابي ومواقفه بشكل دفعه إلى البحث عن طرق جديدة في التعبير وكذلك عن معاني شعرية تناسب أحلامه ورؤاه .. إلا أن تجربته الجديدة التي قوبلت بالرفض لعقود على ما يبدو تسببت في إهمال قصائد النثر التي لم تحظ

بالإهتمام حتى من قبل عائلته والمقربين منه .. ولم ينفض عنها غبار الإهمال إلا عندما دفع شغف ناقدنا بابداعات الشابي رائدا للشعر التونسي المعاصر والتعمق في دراستها وتقصيها إلى البحث عنها في بعض المصادر والرسائل والمخطوطات التي تحصل عليها من المكتبة الوطنية أو حتى بشكل شخصي من عائلة الشابي.. فكان له بذلك السبق في إخراج هذه القصائد إلى النور وقد احاطها بما يكفي من الوثائق والدعائم التي تثبت والتحليل الذي يثبت انتماءها إلى الشابي والى الكتابة الشعرية رغم انه كان قد دونها بشكل مسترسل شبيه بكتابة النثر.. إلا أن الناقد سوف عبيد أعاد كتابتها بطريقة الأسطر الشعرية على غرار قصائد النثر الراهنة بعد أن وضعها في سياقها من تاريخ الشعر المعاصر في تونس والبلاد العربية بالظروف التاريخية التي حالت دون صدورها قبل 2009 ضمن فصل :

_ عودة الدر إلى معدنه : وفيه قراءة نقدية وتاريخية دقيقة وموسعة لهذه القصائد التي تعد 15 قصيدة واحدة واحدة اوردها مرتبة حسب تاريخ كتابتها بعد التحقيق فيه والتثبت من صحته في أكثر من مصدر مردفا تحليله بتقييمات واستنتاجات نقدية قيمة ونافذة من صنف :(ص 39 إن تعبير الشابي بالقصيد النثري يندرج ضمن بحثه عن التجديد في مجالات التجريب تلك التي مارسها في قصائده السابقة دون أن يخرج فيها عن الضوابط العروضية الأساسية اما في هذه القصائد فكأنه يمرح في جنان الشعر بلا رقيب وبلا قيد ولا حد)

ولا يفوتنا هنا أن نحيل على دقة ناقدنا وهو يتدرج مع هذه القصائد متقصيا تعرجاتها الأسلوبية والدلالية مقارنا بينها باحثا في ما يربطها إلى بعضها من قرائن ووشائج زمنية وفنية ودلالية..

إن قيمة هذا الكتاب لا تكمن فقط في جمعه وتحقيقه لجزء من مدونة الشابي بل أيضا في المعلومات التاريخية والإحالات على الوثائق والرسائل والمراجع المرتبطة بها والقريبة منها وفي اضاءتها لكافة التجربة الشعرية الشابي ومنزلتها في الأدب العربي والتونسي.. وايضا في التعريف بمسار قصيدة النثر خلال عصر الشابي وبعده وما طرأ عليها من تحولات.. والأهم من هذا كله ان هذا المنجز اماط اللثام عن مدونة شعرية كانت مغمورة رغم شهرة صاحبها لتضعه في منزلة المبادر خلال مرحلة تاريخية متقدمة بتأسيس قصيد النثر الذي ظل الرأي العام معتقدا بنشأته في المشرق مع اربعينات القرن الماضي.. وان هذا المنجز أيضا كشف حقيقة أن الشابي في رصيده ديوان شعري ثان إلى جانب « اغاني الحياة» هو ديوان «صفحات من كتاب الوجود''

وحرصا من الناقد سوف عبيد على مواكبة حركة الشعر العربي الحديث ومنزلة الشعر التونسي فيها نجده يواصل تقصي أفنان الشعر وأعلامه في كتاب :

** الضفة الثالثة وهو عبارة عن مصنف جمع فيه ناقدنا جملة من المقالات النقدية (تجاوز عددها الخمسين مقالا) سبق نشرها في المجلات والصحف خلال فترات متنوعة.. تأمل فيها تجارب شعرية للعديد من الشعراء القدامى والمعاصرين والعرب والتونسيين وحلل نماذج من قصائدهم التي حازت اهتمامه محافظا دائما على شغفه الذي لا ينضب بابن خلدون والشابي وكأنه يردف دائما ما كتبه فيهما بما لم يكتبه بعد.. وهو في أثناء قراءاته المتنوعة محتكم دائما إلى رصيد معرفي مترامي الأطراف ودراية بمقومات تحليل النصوص واستقرائها وتقييمها وإحالتها احيانا إلى سياقاتها الأدبية العامة وحتى الثقافية والتاريخية.. ونظرة تحررية تؤمن

بتطور الأدب ومعايير نقده وتقييمه.. فجاءت مقالات هذا المصنف غنية بالرؤى النقدية في استجلاء جماليات الكتابة الشعرية المتنوعة وغنية أيضا بالمعلومات الأدبية والتاريخية وحتى السياسية احيانا.. هذا طبعا الي جانب قيمته المعلوماتية في تسليط الضوء على

اعلام الشعر الحديث العرب والتونسيين والمدارس الأدبية التي ينتمون إليها..

تنضاف إلى ذلك دراسة ناقدنا لجملة من الظواهر الأدبية الدارجة في الشعر العربي قديمه وحديثه منها : الحب والحرب في الشعر الأندلسي... النخلة في الشعر العربي... الغزل بصيغة المؤنث... شعر المقاومة في بلاد المغرب... مدخل إلى شعر الومضة.....

وحتى تكتمل الفائدة وضع في آخر مقالات الكتاب ملحقا يؤرخ لنادي الشعر باتحاد الكتاب التونسيين منذ تأسيسه سنة 1974 وبانشطته والفروع التي تولدت عنه في بيت الشعر وفي دار الثقافة الوردية وفي جمعية ابن عرفة.. شغله الشاغل من وراء ذلك كله تنزيل الشعر التونسي المنزلة التي تليق به والتوثيق له وتخليده للأجيال القادمة كي تظل شمس الشعر مشرقة ابدا حتى في زمن الخيبات..

لذلك يمكن ان نعتبر هذه المادة النقدية الثرية بمشاربها الثلاثة جديرة بأن تكون قبلة لمن يروم البحث في تاريخ الحركة الشعرية المعاصرة وخصائص مدونتها ومذاهب أعلامها وخلفياتهم..

***تقييم وخاتمة** : الشاعر سوف عبيد كتب القصيدة التونسية الحديثة بكل أصناف بنائها وكل أشكال تعبيرها وهو في الأثناء يكتشف اللغة ويختبرها ويستولدها بل ويبتكرها.. حتى عسر تحديد نهجه في الكتابة وتصنيف قصائده المتنوعة شكلا ومضمونا.. وكتب سوف عبيد الناقد الدراسات والمقالات النقدية

المعمقة والجادة برؤيا توازن بين التأصيل والتحديث.. وهو في كلا المجالين يساهم في شق طريق للأدب التونسي سليلا لجذوره وليدا لزمانه وهويته الثقافية منفتحا على التجربة الإنسانية فكرا ووجودا.. وهذا هو سر جاذبية كتاباته وثرائها حتى أن الولوج هو بمثابة الولوج إلى بستان جنائني يشمل كل ألوان الجنى إلى درجة تحير القاطف إزاء انتقاء لذائذها.. لا تكاد تبتهج للون منها حتى يسبي ذهنك غيره.. فتسير على غير هدى نحو عمق الشعر التونسي المعاصر وفي سياقه العربي وانت برفقة صوت من اصواته البارزة.. له إضافاته وحضوره وتأثيره وتفرده.. خاصة وانه سعي عبر قرابة نصف قرن من الكتابة أن يرسي أركان تجربة شعرية موغلة في الحداثة بمتغيراتها مدفوعا برغبة تخطي الأطواق التي تحاول بعض التجارب والرؤى سجن القصيد فيها.. وبهاجس المضي المستمر بها نحو البحث والفتح في لغة الضاد عن إمكانات وتوظيفات لا متناهية في التعبير عن كل الأشياء والحالات والمشاعر والمواقف والرؤى.. فكان تنوع وجهات تجريبه واختباره وابتكاره في شعره إستجابة لتلك الرغبة وذاك الهاجس الذي دفعه إلى النقد والتوثيق بحثا عن صداه في مرآة تجارب الآخرين..

إنه سوف عبيد شاعر يكتب برؤيا حداثية وناقد ينقد برؤيا تقدمية لا تقف عند معايير أو تصنيفات ثابتة.. مازال يواصل المسيرة بإصرار ولم يفتُر عزمه رغم ضنى المشوار..

أليس هو القائل :

ما زلت لم آت.....
آت. بالجديد
بمواعيدي.. بأناشيدي
بعهودي.. بوعودي
ببشرى فتوحاتي.. ؟؟

هل يكشف «ديوان سوف عبيد» عن حياته وتفاصيلها ؟؟؟ سؤال وضعه وحاول الإجابة عليه

محمد بن رجب

لقد أحسن «سوف عبيد» تسمية أعماله الكاملة بديوان سوف عبيد لأنها ليست كاملة وقد تأتي أعمال أخرى بعدها، إنما الديوان فهو يجمع شعره الذي إرتضاه والذي صدر في مجموعات شعرية متتالية جاءت طبعا بعناوين مختلفة التي بدأت بـ«الأرض عطشى» ثم توالت المجموعات من «نوارة الملح» و«إمرأة الفيسفساء» و«صديد الرّوح» و«جناح خارج السرب» و«نبع واحد لضفاف شتىّ» و«عمر واحد لا يكفي» و«الجازية» و«عاليا بعيدا» و«واحدان» وأنهى ديوانه بنص مطول خرج إلى الناس في كتاب بعنوان «القطار الذي فات: بصمات وخطوات من سيرة ذاتية» وهو حصيلة حوار أدبي أجراه معه الكاتب والمترجم عبد المجيد يوسف.

يمكن لهذا الديوان أن يرسم لنا صوره كاملة عن سوف عبيد، بما يعني هل يمكن له أن يكشف لنا ما استبطنته قصائده من أسرار حياته... وما تحمله من هموم الدنيا عبر مسيرته منذ ولادته في بير الكرمة في منطقة الغمراسن بالجنوب التونسي إلى اليوم، مرورا بطفولته ومن التلميذة في التعليم الثانوي بعد انتقال والده إلى العاصمة والاستقرار باحدى ضواحيها إلى سنوات الطلب بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس ثم التدريس بالمعاهد الثانوية إلى سن التقاعد عام 2012 مع التوقف طويلا عند بداياته في كتابة

الشعر، وانشطته الأدبية والثقافية المختلفة من سن الشباب إلى اليوم..

وبمعنى آخر هل ينطق شعره بهذه السيرة الثرية الطويلة المتنوعة وهي سيرة على ما يبدو هادئة، لا ازعاج فيها ولا اثارة ولاحروب، ولا نضالات وليس فيها ما يريبها، وما يطعن فيها.

لكن المنطوق نثرا هنا لم يكشف ما يخفي عادة عن المترجمين للشعراء والكتاب لأنهم لا يسائلون التاريخ بما يحدث فيه ولا السنوات بما حملت في أعماقها وفي ذاكرتنا..

فمن الواضح أن سوف من مواليد عام أي أنه ابن الاستقلال الذي نالته تونس من فرنسا الاستعمارية عام 1956. فهل يمكن أن يتذكر طفل في هذه السن أفراح الشعب في أيام الإعلان عن الاستقلال؟ هل يمكن لفتى في العاشرة من عمره أو يكادّ أن يتذكر حرب الجلاء الفرنسي عن بنزرت، وطبعا لا يمكن لشاب أن ينسى الحرب العربية الاسرائلية عام 1967 الذي وصفوه بعام إنكسار العرب وانتصار الجيش الصهيوني بدعم استراتيجي ظالم من الولايات المتحدة الأمريكية وكامل دول أوروبا العربية وطبعا عاش سوف عبيد أحداث سياسية التعاضد وفرض الاشتراكية في تونس. اندلعت اثرها حرب أكتوبر التي انتهت ببعض انتصار وحلم وأمل في العرب وتتواصل حياة سوف عبيد مع تشكل السياسة الليبرالية التي انتهجتها البلاد للخروج من الأزمة الخانقة التي أصابتها بسبب أخطاء تطبيق الاشتراكية .. في هذه المرحلة نجد فيها سوف عبيد طالبا وأستاذا فمن المؤكد أنه استوعبها كليا ولم يكن راضيا عن وحشية تطبيق الرأسمالية التي لم تكن تعتني بالإنسان بقدر ما اعتنت بالمصنع والشركات والإدارة والحكم والسلطة ... ومن المؤكد أنه_ شاهد صعود الطبقة العمالية وما أفرزته من نضالات

ومعارضات وما انتهت إليه الصراعات من صدمات دموية في كامل شوارع البلاد في يوم أحمر اطلق عليه الملاحظون والمؤرخون الخميس الأسود 26 جانفي 1978، يوم أسود آخر 3 في جانفي 1984 والحصيلة كانت ثقيلة. وتتوالى الأحداث في تونس وفي البلاد العربية، مزعجة مؤلمة موجعة، مدمرة في العراق إثر تغيير كبير حدث في بلادنا يتمثل في ازاحة الزعيم بورقيبة وانهاء حكمه ووضعه هو في نفي انفرادي طيلة 13 سنة...

وفي هذه المدة عشنا أطوارا من الصراعات والحروب، والدّماء والمظاهرات انتهت بهزة كبيرة أحدثتها ثورة شعبية غدروا بها.

وطبعا عاش سوف عبيد أحداثا عالمية كبرى مثل سقوط الاتحاد السوفياتي وقبله بسنوات عدية خروج أمريكا من الفيتنام مهزومة ذليلة فعوضت الفيتنام بأفغانستان

كل تلك الأحداث الكبرى لا يمكن أن لا تؤثر في سوف عبيد طفلا فتى يافعا وشابا وكهلا... طبعا لا يمكن أن لا تؤثر فيه ذكريات الأحداث التي عاشتها تونس في السنوات العشر الأخيرة بها فيها من نهب وسرقة وفشل في الحكم.

ومن المؤكد أيضا أن سوف عبيد عاش أحداثا خاصة في مسقط رأسه في العائلة ... ومع الأصدقاء مع الأّحباء والحبيبات، ومع الشعراء وأهل الثقافة...

هل يمكن أن نقرأ قصته هذه الطويلة بأحادثها ومجرياتها المتنوعة من خلال قصائده.

لكن هل لمن يكتب مثل سوف عبيد قصائده أغلبها من قبيل شعر التفاصيل اليومية والأشياء الصغيرة تفاصيل تبدو لنا عادية لا تشد الاهتمام أوهي أشياء صغيرة لا تتحدث بشئ ...

قبل البدء نقول بأن التفاصيل اليومية والأشياء الصغيرة ليست كل ما في ديوان سوف عبيد بل هناك قصائد مطولة في مسائل مهمة وهي وقفات قصيرة لكنها تستبطن قضايا كبيرة.

لكن لا يجب أن نعتبر أن التفاصيل والأشياء الصغيرة والعابرة ليست ذات بال بل بالعكس هي كل البال وهي كل الاهتمام إذا ما عرف الشاعر كيف يلتقطها وكيف يصوغها ويقدمها إلى قراء الشعر هو الذي يشحنها بما يجعلها ترشح فن الذاكرة وتبقى حديثا في الشعر وتترك أثرا لا يمحى وتحكي حدثا لا ينسى ويرسم صورة لا تزول، وما يجب ان تنطلق منه في جانب آخر من قراءتنا العميقة لشعر سوف عبيد هي أن ما ذكرناه من طريقة ابداعاته غير مكتمل إذا ما أهملنا القول بأن قصائده ليست فقط هي تلك التي تهتم بالأشياء الصغيرة وتلتقط التفاصيل بل هي أيضا نصوص شعرية قصصية أو هي قصص شعرية بما يعني أن ديوانه يزخر بالحكايات والطرائف واللطائف جاءت في أشكال فنية مختلفة تشدك من أول وهلة ببساطتها في اللغة وتركيبتها الهندسية على الورق، لكنها من البسيط المعقد ... والسهل الممتنع، تسمح بقراءات متعددة لأنها تستبطن الكثير من المعاني والصور إذا ما إستعملنا آليات النقد والبحث والدراسة دون التوغل في التنظيرات واستعراض المعلومات عن المدارس النقدية القديمة أو الحديثة أو المستحدثة، إنما نبغي من النقد هو الذي يستجلى الخفايا، ومن البحث ما يكشف عما خططنا للوصول إليه ألا وهو التعرف على صورة حقيقية أو تقريبية عن الشاعر سوف عبيد ولايمكن أن نرسم صورة سوف عبيد الشاعر الانسان والمربي والنشيط في الحياة الثقافية للمواطن التونسي المنغرس في تربته تاريخ ومفادها دون أن نحلل جل قصائده لنستقرئ خطابه وفق طريقة ايتوس Ethos أو ما يكمن تلخيصه

ب «صورة الكاتب التي تتجلى عبر كتاباته» وهي طريقة فن القراءة القديمة قدم الشعر لكن النقد بلورتها في أشكال كثيرة من التقويم والتقديم أعطاها بعدا حديثا وألحقتها بمدارس تحليل الخطاب اعتمادا على الألسنية وعلم الدلالة وآليات أخرى قد نلتجئ فيها إلى علم للاجتماع وعلم النفس على أساس أن جل الشعراء الحقيقيين لا يتدخلون في نصوصهم ويتركونها تصدر عنهم فيما اتفق لها فنيا، لكنها تستبطن روح الشاعر ونفسيته وقضاياه.

من الواضح أن شعر سوف عبيد بصفة عامة لم يأت في قصائد ذات تبذير لغوي إنّما قدمت نفسها باقتصاد لغوي وكأنه من البدء لا يرغب صاحبه في قول كل شيء رغم بساطته كما أسلفنا، فمن عناوين القصائد تحدث طويلا لأنها مثل قصائد التفاصيل رغم أنها قصيرة، أو هي مكثفة ذات مفردة واحدة، وهذه المفردات تتحد مع الأشياء أو تتصارع معها لتكشف عن أمر ما نحن نبحث عنه ذلك أن عنوان القصيدة يغلى بالدلالات عن الأشياء (معطف، نوم، عصفور، سمكة، قهوة، وردة، نجمة، ليل، قرية).

يقول غاستون باشلار في كتابه «شعرية المكان» عما أسماه المكان الأليف الذي ولد فيه الشاعر، وقضى فيه طفولته يمكن أن نراه وأن نحدده من تلك المفردات والألفاظ المتناثرة التي تبدو منعزلة على رأس القصيدة لكنها في واقع الأمر تستدرجك فتقف على أن مخيال الشاعر قد تشكل من تلك الأشياء الصغيرة التي رسخت في اعماله فلم تعد عنده تلك الكلمات المتقافزة الراقصة لعبة فنية للتباري مع الذات باللغة العادية المختطفة من الملحوظ والملموس إنما هي في النهاية تشكل في خيال الشاعر صورة حقيقية تعتمر في الأحلام في اليقظة

ويؤكد ميشال فوكو في دراسة له «الكلمات والأشياء» أن عنوان القصيدة حمل لفظة واحدة أو لفضتين إنما هو نص صغير عند القارئ المتعجل .....عن لحظة جمال ومتعة وهو نص مشحون يصنع العلاقات كثيرة تحادية وتنافرية مع بقية النصوص الصغيرة في الديوان.

فما إن نفتح ديوان يوسف عبيد حتى طالعنا قصيدة بعنوان ليس يحمل أكثر من كلمة «البدء» من مجموعته الأولى «الأرض عطشي»(1980) فهذه نقطة الواحدة كم تحمل من معان إنها بداية الحياة أو بدء الكون وبالبدء تشكل كل ما حولنا فيحدثنا سوف عبيد كانت بداياته.

أنا أنت يا أرض
بين سكة المحراث وخطوط الحرث
أحيا لحظة الدفق
بدء البذرة تنبت
أنت أنا أيا أرض
خضرة قمر الليل في النهر يصب في حوضي
أنا أنت أيا أرض
زورقا أكبر من البحر

هي أشياء أرتسمت منذ البدء (الأرض البذرة والنبات والقمر) من أجل أن يرى الخضرة ويتحقق حلما جميلا بنباتات وحدائق وجنان هكذا كان شاعر في الجاهلية الذي نشأ في الصحاري يحلم بالماء والخضرة وهكذا وعد القران الكريم العرب بالفردوس والجنان والكوثر الماء والخضرة والجمال الذي لا ينتهي يقول .... في البدء

أنت الخضرة

أنت الخضرة
أنت الخضرة
أيا أرض
لا تسألي عن الخبر
فالسمع
والبصر
خضرة

كلمة الخضرة تتردد كثيرا لا لأنها كثيرة في عالمه الأول إنما كانت عزيزة لديه ولدى غيره وبداياته لا تخرج عن عالم الطبيعية «الشمس على جبيني» والحلم بالماء والعشب فهو يناجي الطرقات أن تعشوشب ليرى حبة قمح أو شعير أو صابة زيتون في وادي غير ذي زرع والجفاف والأشعة تحفر جبينه بئرا أي الماء.

وفي قصيدة هي ومضة أو كالومضة.

كان يرى
في ما يرى النائم
أنه يغطس في البحر
يتنفس الماء ويلاعب الحيتان
كان يرى في ما يرى النائم
أنه يسكن الشمس .....و يصطلي في غوصها
كان يرى في ما يرى النائم
أنه يغرس نخلة في البراري
تحط عليها الطيور الهاجرة
كان يرى
ليته كان رأى التي أحبها وتركته يحلم

ذلك هو سوف عبيد في طفولته ثم تترای لنا متغيرات في حياته تؤكد أنه إنتقل من عالم الصحراء إلى عالم جديد ففي «جنية الريح» نراه في شرفة الطابق العلوي من الجنائن المعلقة فهل تكون حدائق الضاحية الجميلة بالعاصة رادس ومقرين وسيدي رزيق حيث سنفونية حقيقية تعزفها كلمات ومفردات أخرى تشير إلى تحقيق ما كان حلما فنشهد عالم أخر بمفردات أخرى مثل «السنفونية» و«المسبح»

والمنارة والبحر والموج والمصابيح ثم نختطف إسم «تونس» المدينة التي تنطفئ مصابيحها في الساعة السادسة صباحا عندما تشهد المدينة بدايات حركة حياة في المدينة أصبح يعي بالحياة ومصاعبها ولا يتحسس الأشياء فقط بل يتفاعل مع معاناة الناس مثل البحارة الذين أغرقهم البحر وبائع الحليب الذي يمر كل صباح، والخباز وبائع الفحم الذي يجر عربة قديمة وسيارة الشرطة.

كل ذلك يراه سوف عبيد فلا يتركه يمر .....يختطفه وتسجله ذاكرته الخصبة تتشكل صورته فيما بعد من خلال ما أفرزته الذاكرة حتى نطفت شعرا.

وفي مجموعته الثانية «نواره المليح» الصادرة عام 1984 يطالعنا سوف عبيد الشاب الشاعر بالحياة والواعي بما يحركها والشاب الذي يرى «أجمل البنات « ويبدأ في الحديث عن الجسد وكأنه يتحسس نفسه لأول مرة فيكتشف أن الجسد هو الحياة بل هو كلها.

أيها الجسد الخيل والليل
أيها الجسد النهار والنوار
أيها الجسد الرياح واللقاح
أيها الجسد الثمار والأزهار

أيها الجسد الفصول والوصول
أيها الجسد التراب والخراب
أيها الجسد الشهوة والرغوة
أيها الجسد الجسد الجسد
إشتعل وإنطفئ

هذه القصيدة لا تحدثنا عن سوف الشاب بل سوف الطالب ، وسوف الشاعر ، عن بداية اطلالته على الحركة الادبية في تونس من ناحية هو يرى نفسه من جديد ويكتشف عوالم جميلة ، ويفهم فلسفتها ويعرف انه يحتاجها ، اما انه يتمتع بها أو هو محروم منها ومن ناحية اخرى ان نرى نه سوف عبيد هنا يكشف علاقته بالطبيعة الأدبية فهذه القصيدة انما جاءت في طريقة من الطرائق التعبيرية التي راجت في نهاية الستينات وبداية السبعينات مع محمد الحبيب الزناد والطاهر الهمامي وحمادي التهامي لكار ثم يتشكل سوف عبيد في صورة اخرى مع المرأة العابرة والمرأة الحبيبية والمرأة الجميلةو المرأة التي لا يشده منها شيء .

عالم كبير انفتح امامه ولأنه تقدم في الحياة فأن القصيدة طالت وكبرت واذا بنا امام الزورق اكبر من البحر وهي قصيدة تشغل تحمل اربع صفحات على عمودين من كل صفحة

ومنذ المطلع نقرأ :

اخلعي معطفك قبل الجلوس
زائرتي
أم أنت على عجل
بيتي مخبأ للشمس
لمثل دكنة الشتاء اليوم في الطرق كيكن حديثنا ذا شجون

وفي هذه القصيدة نكتشف سوف عبيد الذي لا يرى المرأة المتعة بل يراها الشريكة والواعية ترى معه المدينة والأرض والبلاد والانسان المواطن ومشاكل الوطن وهو لا يسعى بذلك معها فهذا الطبيعي، انما سوف عبيد المتحرر في ضفر والمناضل في هدوء والثائر بلا تهور والغاضب بلا رشق للحجارة في الشوارع لا عنف فهو ينتصر للعمال والمكدودين فقد اصبح يعيش معاناة الموطن العادي الذي اتعبه نظام سياسي غير عادل رغم نه اختار الاشتراكية ثم هرب منها ولكنه حاظ على السلطة ليمارس الرأسمالية المتوصية وقد تبلور ذلك في قصيدته الطويلة

استرح سيدي
نجومك انكدرت
لماذا جبينك اخاديد
لماذا عيناك غائرتان
هكذا
بدون بريق
لا دمع ، لا هدب
شفتاك مفللتان
لا صوت ، لا صدى
كآلهة قديمة
فضق بالمساء والصباح
ما كان مساءك خيرا ،
لا أهل ،، ولا سهل ولا سلام
ابدل عادات الكلام
التحية في الرداءة
عادة سيئة

كل الجهات صدئة .

فيا طارق الابواب ، ، دونك الابواب موصده

وهذه الابواب ، هي ابواب العاصمة معذبة الانسان المناضل «باب الخضراء»

هو قوس نصر الاغنياء ، وطابور للفقراء و«» باب البحر «» لا بحر فيه ولا موج ، وباب الجزيرة مراكبة لدى الافرنج اسيرة و«»باب الجديد « مساميره صديد و« باب المنارة» قنديل عليه ستارة و«باب القصبة» باعوا قفلة احرقوا خشبة وباب البنات عاشق في الموعد مات و« باب سعدون» يفتح على السجون ويسأل الشاعر في نفس هذه القصيدة الطويلة ذات الهموم الكثيرة التي تستقرئ العصور الطويلة لتعذب الانسان ومن الواضح ان سوف عبيد الذي اصبح يعرف المدينة بتاريخها وتفاصيلها ويعيش فيها بكل ابعادها ومظاهرها واشيائها الخفية والعلنية ،فهو من سكان العاصمة وضواحيها وكان والده واعمامه تجار باب الجزيرة وباب البحر وباب الجزيرة

اما بعد ؟

بعد هذه القصيدة التي حملت رؤيته للحياة الانسان التونسي والانسان بصفة عامة وهي التي اعطتنا صورة عن سوف عبيد الذي يرى المدينة من واجتها الأمامية لكنه يلتقط خلفياتها ، نجده الزوج وصاحب البيت والمنفتح على حياة اخرى في قصيدة «الشهر التاسع « وهذه القصيدة ايضا طويلة جدا لكنها زافرة بالأشياء الصغيرة والتفاصيل اللطيفة انما هي تغلى بالمعاني والرموز والرؤى والاحلام والافكار من خلال زوج ينتظر طفله الاول فهل يكون ذكرا أو انثى ، فما الفرق ؟

ويبدا في تصور القادم من بعيد بين تشاؤم وتساؤل وتفاؤل و«تشاؤل» مع تعبير الشاعر عن الخوف من أن يكون المستقبل أكثر تعبا من الحاضر فقد الدنيا بلا جديد ، واطقس ضباب وسحاب والشمس ليست السماء والخبز مغمز بالدماء

وكأن بالشاعر سوف احس بالكبر في السن منذ الابن الطالع فحيث الاول فهو يقول للقادم

ارفع رأسك عاليا
عند سقوط الرأس
اهلا بك في هذا الكون الشاسع
سهلا بك في هذا الدهر الضائع
لك عندي ما اقول
وحديثي الطويل
فنحن الكبار
تحسن سرد النصائح للصار
تدعى تجربتها في الاعمار
ونحن اصفار في اصفار

وهنا يعلن عن غضبه من العصر ومناقضاته والظلم الكبير الذي يسلطه الكبار على الصغار ، الكبير في العمر والكبير في الثروة والكبير اذا كان عالما نحن اصفار على اصفار تمتد عصر الحجرية

لم تتوفر الانسانية
الا قنبلة ذرية
للدمار وما صفقت شبرا واحدا من الحب والحرية للصغار

شهادة سوف عبيد سادن الشعر التونسي وأخو الشعراء

صلاح الدين الحمادي

حين اكتشفت اسمه في ساحة الشعر، وأنا في بداية تحسسي المشهدَ الثقافيّ في بلادنا، اقترن ذلك الاسم بأسماء الشعراء الذين برزوا وذاع ذكرهم في تلك الفترة، فترة الثمانينيات من القرن الماضي. وقعت بين يديّ حينها مجموعتاه الأُولَيان: الأرض عطشى ونوارة الملح، فاستهوتني، وأنا في بداياتي، عبارتُه، وشدّني أسلوب تنضيده الكلمات لخلق الصور واستجلاب المعاني على غير أسلوب مُجايليه، فارتبط اسمه في ذاكرتي منذ ذلك الوقت، بصفة التفرد والحداثة الشعرية. ومن يدقق النظر الآن بعين الخبير في نصوص شاعرنا من بداياتها إلى الآن سيلاحظ حرص الشاعر على أن يختط لنفسه منذ الكتاب الأول صوتا مختلفا وبصمة خاصة في القول الشعري، وذلك بتجنبه طرق المعاني التي كان يروج القول فيها آنذاك، بالمباشراتية الفجّة أو بإلباسها الكساء السياسيّ الذي كان عملة شعرية رائجة في ذلك الوقت. وهذا ما كان يميز نصه من بين النصوص الأخرى.

رجل يحب الشعر حبا في الشعر، لا أكثر ولا أقل. إنه «جناح خارج السرب»، وهذه عبارة اختارها لتكون عنوان مجموعته الشعرية الصادرة سنة 1992. لكأنه يبحث عن الاستثنائية، وقد لمسناها في شخصه كما لمسناها في شعره، فسوف عبيد حين

التقينا به في رحاب اتحاد الكتاب التونسيين وأنا عضو شاب في هيئته المديرة سنة 2001، ما وجدنا منه إلا التشجيع والاحتضان والمرافقة اللينة المقترنة بكثير من العطف والكرم، حتى أنه أهداني جزءً كبيرا من مكتبته لما توطدت علاقتي به. وكثيرا ما صرنا نتزاور في منزلينا ونترافق للمشاركة في مختلف التظاهرات الثقافية التي كان يشارك فيها بحماس ولكن بتعفف، فلا أذكر أنه جرى وراء مكافأة مالية وقد لا أكون مغاليا إن قلت إنني لم أشهد يوما أنه قبض مالا عن مشاركة له في تظاهرة كنت فيها معه. وقد تميّز الشاعر سوف عبيد، عكس الكثير من الشعراء، بدماثة الخلق والالتزام بقواعد العادة والعرف والمنظومة القيمية التي تسود المجتمع فتنظمه وتحفظ تماسكه، ولذلك غالبا ما تجد تلك القيم والتقاليد مبثوثة في نصوصه الشعرية يدسها دسّا في القصائد بسلاسة فنية عذبة تعلي من شأنها بذكاء وتدعو إلى التقيد بها بلطف، يأتي بها قطعا من الحلوى مقدمة على أطباق من الكلم الطيب. وهو ما قد يفسر ثراء ديوانه بعناوين لقصائد عديدة هي أسماء لأشياء بسيطة منتمية إلى اليومي، نحو الحذاء، المسرجة، العصفورة، الضفائر، النملة، المقهى، التفاحة، النخلة، البرتقالة، الكرسيّ، المروحة، البرنس، القطار، الجمل، الحبل، الرحى، السيجارة، السيف الشطرنج، المرود، النارجيلة، رباط العنق، الثلاجة، . . . إلى غير ذلك من أسماء الأشياء التي تؤثث حياتنا اليومية، ولا نكاد نلتفت إلى دلالات استعمالها أو دلالات أسمائها. يأتي بها سوف عبيد إلى فضاء القصيدة ليجلي بها معانٍ كامنة فيها لا يتفطن إليها إلا شاعر متمكن أو حكيم متمرس بقراءة العالم الذي يحويه.

لسنا هنا بصدد إنجاز عمل نقدي في مدونة شاعرنا الكبير، بقدر ما نحن بصدد الكتابة عنه في علاقة بما يكتبه، أي في علاقة بسيرته

الشعرية. ونرجع فنقول إننا التقينا به في غمار تلك المسيرة الشعرية المظفرة، التي اكتشفنا فيها مواطن الرقيّ في شخصيته ونبل معدنه وكريم طباعه، ما جعله أخا لكل الشعراء تقريبا، فعلاقته بهم كان يسودها الودّ وحسن المعاشرة وطيب المقصد، ولم نر له مناكفات أو خصومات شعرية أو غير شعرية مع مجايليه أو غيرهم. إنه مثال الرجل الودود المترفع عن كل ما يمكن أن يفسد العلاقة بالناس، فيعكس صورة سيئة عن ما نسميه التصرف الشعري، أو السلوك الثقافي الذي ينبغي أن يكون في نظرنا سلوكا راقيا حضاريا حتى يمكن له أن يمحي الصورة النمطية الرديئة للشاعر التي روجتها جهات عديدة لتضرب كل قدراته على التأثير في الناس وبالتالي الفعل في الشأن العام. ويبدو لنا الشاعر سوف عبيد رجلا متيقظا مدركا لذلك، فإذا به لا يظهر في الفضاء العام إلا بمظهر الرجل الأنيق لباسا وقولا متلفظا، وبمظهر الرجل العاقل الحريص على دفء علاقاته بالناس عامة فضلا عن الشعراء وكل المشتغلين في الفضاء الثقافي، زد على ذلك مثابرته على التعلق بالقول الأدبي والإضافة في مجاله، معليا من شأن الشعر والشعراء، مشجعا المبتدئين منهم موجها لهم مرافقا لمسيرة الكثيرين منهم. فحق أن يقال فيه إنه كان سادنا للشعر التونسي وأخا لشعراء تونس جميعا، هكذا للشعر في سبيل الشعر، دون أن يكون متطلعا لاعتراف منهم بالجميل أو منتظرا لشكر أو جزاء.

ولم أجد طوال فترة تسييري اتحاد الكتاب التونسيين كاتبا معتزا بانتمائه إلى تلك المنظمة العريقة فخورا بعضويته بها، حريصا على حسن أدائها كشاعرنا وأخينا سوف عبيد. فهو من أكثر الأعضاء وفاء لبيتهم اتحاد الكتاب، لا يفوّت موعدا لنشاط إلا واكبه، ولا موعدا لدفع معلوم انخراط إلا ودفعه ولا فرصة للتعريف بالاتحاد

أو بمنشوراته إلا اقتنصها، ولا مناسبة ثقافية له فيها دور إلا وعمل على تشريك الاتحاد فيها. إنه مثال الكاتب الوفي لمنظمته التي قادها لسنوات عديدة رفقة كبار المؤسسين من أمثال محمد العروسي المطوي والميداني بن صالح وغيرهما. ولقد وجدت من لدنه العون اللامحدود واللاممنون، إذ لا يكاد ينقطع عن زيارة مقر الاتحاد إلا لظرف قاهر، ولا ينفك يسأل عن الأحوال ويشجع الموظفين بالكلمة الطيبة والهدية اللطيفة، فضلا عما كان يمدني به من نصائح ومعلومات عن تاريخ الاتحاد وعن ذكرياته مع الذين مروا به من الأوائل، وكان يقول لي دائما: «امضِ لما أنت فيه من عمل لتحقيق الإضافة والنقلة النوعية المرجوة، وأنا معك شعاري في ذلك، ويقولها مبتسما ومحفزا، « شعاري انصر أخاك ظالما أو ظالما»، ويضيف على سبيل المزاح، أنا لا أرضى أن يكون صاحبي ضعيفا مستصغرَ الشأن عُرضة للظلم، أريده قويا دائما وأنا أريدك أن تكون قويا وكن على ثقة أنني سأكون معك ونصيرك في كل الأحوال. ألم أقل إنه أخو الشعراء.

أما في الشعر فقارئ سوف عبيد شاعرا، بإمكانه أن يستنتج بيسر أنه يمتح قوله من الحياة بمختلف أشيائها، بل من الأرض وما جاورها وما حوته وما حواها. فإذا بالكون والشمس والقمر والنجوم والأرض والتراب والبحر والكائنات الحية والموجودات جميعها تتحول إلى مصادر إلهام يستقي منها الشاعر المعنى والدلالة، ويقدمهما في كساء فني بهيّ محكم النسج بديع الزخرف.

لذلك ولكل ما تقدم سيظل الشاعر سوف عبيد علامة مضيئة من علامات الشعر التونسي الحديث، وعلما يهتدي به الشعراء في ملاحقة المعنى، والناس في عشق الحياة والتعلق بها والذهاب فيها بعيدا. مستنيرين بقوله: «الذي يمضي بعيدا . . . يمضي وئيدا . . . ».

سوف عبيد...
شعرية التفاصيل والحنين

نورالدين بالطيب

سعادة كبيرة تغمرني وأنا بينكم اليوم في تكريم شاعر وصديق رافقته ما يزيد عن الثلاثين عاما وكان أول من أستقبلني في الوسط الأدبي حين قدمت إلى العاصمة وإلى شارعها الكبير الذي قتل الكثير من الكتّاب والصحفيين والفنانين الذين تبخّروا بين مقاهيه وحاناته وضاعت أصواتهم بلا صدى كما تضيع أصوات العصافير في سماء الشارع.

سوف عبيد عرفته شاعرا قبل أن أعرفه أنسانا وكان من ثلاثة غمروني بكثير من التشجيع والتوجيه وهم سوف عبيد وعبدالله مالك القاسمي وعبدالحميد خريف رحمهما الله. عرفت سوف عبيد مطلع الثمانينات فيما كان يعرف بصحافة الرأي مثل صحيفة الرأي وخاصة مجلات الموقف والمغرب وحقائق وكان سوف ينشر في هذه المنابر بنسق شبه منتظم.

وتشاء الأقدار أن ألتقيه للمرة الاولى في ربيع 1988 أو 1989 في دار الثقافة باب بحر بصفاقس وكنت آنذاك طالبا في زيارة إلى صفاقس ومما أذكر في هذه الأمسية حضور عبدالجبار العش والمغفور لهم نورالدين بوجلبان ومحمد البقلوطي وعبدالرزاق نزار لألتقيه فيما بعد عند ألتحاقي بمهنة الصحافة وكان سوف عبيد وقتها في الهيئة المديرة لاتحاد الكتاب المنشغلة بأعداد مؤتمر

الاتحاد العام للكتاب والأدباء العرب الذي احتضنته تونس في ديسمبر 1990.

وكانت تجربتي في نشرية المؤتمر أوّل تعارف جدّي بيننا تواصل على مدى سنوات ترافقنا فيها في أكثر من أمسية شعرية ومهرجان بين شمال البلاد وجنوبها. ومن خلال سوف عبيد تعرّفت على الكثيرين من أعلام تونس مثل الراحل الدكتور سعد غراب الذي كان وقتها رئيسا لجمعية أبن عرفة وكان مقرّها في حي الشباب الذي أصبح مدينة الثقافة اليوم.

يأخذك سوف عبيد في قصائده الموزعّة بين عديد المجموعات الصادرة بين 1980 و2016إلى روحك القصية في قصائد تبدو بسيطة لكنّها تغوص عميقا في الذات وتختزل الألم الإنساني من «الأرض عطشى» إلى «نوّارة الملح» إلى «أمرأة الفسيفساء» إلى «صديد الروح» إلى «جناح خارج السّرب»وصولا إلى «نبع واحد لضفاف شتّى« و«عمر واحد لا يكفي» و« الجازية» و«حارق البحر» و«عاليا وبعيدا» و«واحدان».

وعلى مدى هذه الرحلة الشعرية التي انطلقت من دار الثقافة أبن خلدون منتصف سبعينات القرن الماضي حافظ سوف عبيد على نفس شعري لا يشاركه فيه أحد حتى أن قصيدة سوف عبيد تعرف حتّى وان نشرت دون أمضاء فقد نسج سوف عبيد لنفسه مسارا ولغة خاصة ميّزته عن كل أبناء جيله.

وما يشد في التجربة الشعرية لسوف عبيد أنغماسه في التفاصيل والتقاطه لمعاناة البسطاء وأحلامهم ومن قصائده التي لا تنسى قصيدة الحذاء في مجموعة «الأرضى عطشى»

جاء الربيع

سيشتري حذاء

جاء الصيف سيشتري حذاء
جاء الخريف سيشتري حذاء
عندما إنقضى الشتاء
تعلّم المشي حافيا...»

أنها قصيدة تختزل آلام ومعاناة الفقراء في مواجهة قسوة الحياة؛ كما يحضر الجنوب في قصائد سوف عبيد وخاصة مدينته الأم غمراسن التي تحضر دائما وخاصة في قصائد السنوات الأخيرة؛ تحضر حتى من خلال معمارها وطفولته وهو الذي لم يعش فيها إلا فترات قصيرة ومتقطعة.

وكما تنساب قصائد سوف عبيد عذبة مثل نهر؛ يأسرك بلطفه فعلى مدى سنوات من صراعات أتحاد الكتّاب حافظ سوف على علاقاته مع الجميع وكان رجل أجماع وتجميع ولم يعرف عنه أنه أساء لأحد أو أستهدف أحدا في رزقه كما فعل آخرون سامحهم الله وغفر لهم.

وعلى تعدّد مشاغله بين التعليم واتحاد الكتّاب لم يغفل سوف عبيد عن جمعية أبن عرفة التي حافظ على حضوره فيها منشطّا ومسؤولا متطوّعا ونجح في أن يجعل من نواديها في دار الجمعيات في السليمانية فضاءا ثقافيا أسبوعيا يقصده أحباء الأدب ويكاد يكون الفضاء الوحيد المنتظم في مدينة تونس العتيقة بما تمثله من رمزية تاريخية وكان سوف هو مهندس هذه اللقاءات التي أصبحت من تقاليد السليمانية وقلّ أن نجد مبادرات أخرى قائمة على التطوّع وحب الأدب فقط.

فسوف عبيد الذي نلتقي اليوم في حضرته شاعر أخلص للشعر الذي لا يكتبه فقط بل يعيشه في محبّة النّاس دائم الابتسامة

والترحيب مع الجميع حاضر البديهة والنكتة بما يجعل الجلوس معه فسحة بين الأدب والتاريخ والحياة.

ولعل «القطار الذي فات» بصمات وخطوات من سيرة ذاتية التي نشرها سوف عبيد في الديوان الذي أصدره في 2017عن دار الاتحاد للنشر والتوزيع يضيئ الكثير من شخصية سوف شاعرا وإنسانا وهذا العنوان يذكّرني بومضته الشعرية التي أذكر أنه أستشهد بها في بيته عندما كنا مجموعة من الأدباء التونسيين والعرب في بيته في 1990

القطار الذي فات
لا تجري وراءه
فالذي يحبك
يحبك أكثر
وهو ينتظر

فأطال اللّه في عمر صديقنا الشاعر سوف عبيد وشكرا لمنتدى التنوير التونسي على هذا الاحتفاء بالشاعر وهو يخطو السبعين موفورا بالصحة والأبداع.

عندي حكاية سأنشدها شعرًا
نوّارة الملح للشاعر سوف عبيد

حافظ محفوظ

نوّارة الملح هي المجموعة الشعرية الثانية للشاعر سوف عبيد صدرت سنة 1948 بعد باكورة إنتاجه الأرض عطشى الصادرة سنة 1980. إذن هو الكتاب الثاني في رصيد الشاعر جاء ليؤكّد الاسم والتجربة وليضيف للساحة الشعرية التونسية اسمًا جديدا مختلفًا تمام الاختلاف عن السّائد باحثا عن أرض جديدة للقول الإبداعيّ. اختلاف في الشّكل والمعنى وفي تجليّات القول الشعريّ الذي بدأ في تلك الفترة يشهد تحوّلات عدّة مع مجموعة من الشعراء التونسيين نذكر منهم منصف الوهايبي ومحمد الغزي ومحمد الصغير أولاد أحمد والمنصف المزغني ومحمد العوني وآخرين، وليس غريبًا أن تحتضن دار (ديميتير) ذات التوجّه اليساري هذه الأسماء وهي التي كانت تبحث فيما تبحث عن الأدب البديل للسائد آنذاك. ولعلّي لا أجانب الصواب إذا قلتُ إنّ تسعينات القرن الماضي كانت من أهمّ فترة من فترات الشعر التونسيّ حيث ازدهر وتنوّعت أصواته وشهد حركيّة كبيرة شملت الفضاءات الثقافية الرسمية والجامعات والمنتديات الخاصة.

في هذا الإطار تنشأ تجربة الشاعر سوف عبيد تجربة لا تشبه إلاّ ذاتها ، لا تمتح من التجارب العربية التي كانت سائد آنذاك ورائدة ومؤثرة. تجربة تفتح أعينها واسعة على واقعها بدءا بمسقط

الرأس (...) وصولا إلى العاصمة التي ألهمته أغلب قصائد هذه المجموعة.

نوارة الملح

تحوي المجموعة 13 قصيدة هي على التوالي:

خيول الافرنج 1974

الشهر التاسع 1984

الزورق أكبر من البحر 1984

الطين 1983

الغار 1984

جناح 1984

النملة 1983

علاقة 1984

الضفائر 1983

الجسد 1984

الجسر 1984

أجمل البنات 1981

المقهى 1982

الملاحظة الأولى هي أنّ قصائد المجموعة كتبت خلال السنوات الأربع الأولى من ثمانينات القرن الماضي عدى قصيدة خيول الافرج فقد كتبت سنة 1974 ونجدها في طالع المجموعة وتتوزّع على 12 صفحة أي ما يقابل حسابيّا سدس الكتاب.

الملاحظة الثانية هي أنّ الشاعر تخيّر ممّا كتب خلال السنوات الأربع الأولى من الثمانينات إحدى عشرة قصيدة قصيرة ليخرج بها للنّاس شاهرًا وعيا جديدا بالكتابة الشعرية ونهجا جديدا سنراه يتوضّح أكثر من خلال مجاميعه القادمة

الملاحظة الثالثة هي أنّ عناوين هذه القصائد كلّها أسماء معارف جاء التعريف فيها إمّا مطلقًا بالألف واللاّم مثل: (الطين، الغار، النّملة، الضفائر، الجسد، الجسر، المقهى) أو معرفة بالإضافة مثل (الشهر التاسع، أجمل البنات، خيول الافرنج) فيما ورد عنوانان اسمين نكرتين هما (جناح ، علاقة)و لا أحسب هذين الاسمين نكرة فالأوّل (جناح) يشير إلى مسمّى لا يخرج عن الشكل المعلوم فالجناح جناح معروف الشكل والوظيفة ولا يغيب وصفه كبيرا كان أم صغيرا . أمّا الثاني ونقصد (علاقة) فإنّه يتّضح بعد قراءة نصّ القصيدة أنّ الشاعر يعني العلاقة الأكثر شيوعا في الدّنيا عبر التاريخ والعلاقة الأسمى في العلاقات والأقدم وهي التي تربط الرجل بالمرأة وهي بهذا علاقة معرّفة بقدسيتها وقدمها ويمكن بالتالي أن نخرجها من النكرة إلى المعرفة دونما حرج ودون أن يغضب منّا اللغويون كثيرًا.

الملاحظة الرّابعة هي أنّ كلّ قصائد هذه المجموعة دون استثناء وهي تحاول التنصّل من الضروب الشعريّة السائدة في تلك الفترة تختار لنفسها منهجا في القول معلوم لدى الخاصّة والعامة ، منهجا قريبًا من الذّائقة الجمعية وهو منهج الحكاية بما هي أقرب إلى أذن المتقبّل ووجدانه. يذهب الشاعر إليه بكثير من المعرفة النّظرية وهو أستاذ في اللغة وآدابها ومحيط لا شكّ بمميّزات الجنس القصصي ومكوّناته فنرى الشعر وقد تحوّل بين يديه من ركوبة إلى أخرى ، من هيكل إلى هيكل آخر . فبعد أن تخلّى الشاعر عن أحد أهمّ قواعد القول الشعري نقصد الوزن والقافية وما إليهما يتخلّى عمّا للشعر من خصوصيات دقيقة تمنحه الاسم أو ما بقي منه نعني البنية والتنغيم والإيقاع الدّاخلي وسائر البديع، ويرتمي في أحضان القصة أو السّرد بشكل عام يطوّعه قصرا على البوح والمجاز والإيجاز

البليغ . ويصنع نصّه الشعري بنصّ قصصيّ كامل الشروط لا يمكن لك أن تخرجه لا من هذا الجنس ولا من ذاك ، لا من جنس القصّة ولا من جنس الشعر. وللبرهنة على ذلك أورد أمثلة عشوائية من نصوص المجموعة: النصّ الأوّل

« اللقاء الأوّلُ:

حضرا معا قبل الموعد
جلسا وتركا بينهما مساحه
سبق الكلامُ الشّفاه
كان الوقتُ مضى
أسرع من دقّات القلب»
(قصيدة علاقة 84)

النصّ الثاني :

« كانا تقاطعا عند الجسر
قادمٌ من الليلِ
ذاهبة إلى الفجر
غامض كالسحر
صافية كالتّبر
كانا وقفا على الجسر
مرّتْ سيّارة
فوق الجسر
أحسّا بلفح الهواء
مرّ زورقٌ
تحت الجسر
أبصار لون الماء
كانا صَمَتَا في الجسر

حطّت كالحماية
طار كالنّسر
كانا تباعدا على الجسر
هو: نحو النّبع
إلى النّهر
هي: صوب المصبّ
إلى البحر!»
كانا افترقا من الجسر
حيث لا يدري
حيث لا تدري
غير أنّهما
ذرفت دمعتين
في النّهر!
(قصيدة الجسر ص 45)

إنّ هذا الضرب من النّصوص وهو السّائد في هذه المجموعة لا يمكن بحال أن يحسن السكوت عليه إذا قلنا إنّه من الشعر ولا يمكن السكوت عليه أيضا إذا قلنا إنّه من القصة . لاسيّما ونحن في بداية ثمانينات القرن الماضي لذلك سنقول بكثير من الاطمئنان إنّها من الكتابة الجديدة التّي تبني ذاتها فيما هي تهدم جدرانها وتقوّض أسسها . هي تبني وتهدمُ في آنٍ. هي تؤسّسُ فيما تخرّبُ . هي تقول لا فيما تقول نعم. لا للقديم نعم للجديد. القديم القريب والجديد البعيد. القديم الماثل من أكثر من ألف عام في المخيال الجمعي والمخيال الفرديّ. والجديد المحلوم به ،ذاك الذي لم يكتسب بعد مثالا يحتذى أو قواعد يمكن البناءُ عليها .

إنّها مغامرة ، ويالها من مغامرة.

الحقَّ إنّ الرغبة في التجديد قد أصابت أغلب شعراء تلك الفترة ،كلّ اتّجه إليه وفق رؤيته الخاصّة وبمعوله الخاص . ولنحدّد الأمثلة التونسيّة نذكر من الشعراء الذين جايلو سوف عبيد وحاول كلّ منهم التجديد وكتابة نصّ مختلف يتباين والموجود والمنشود درجاتٍ نذكر في هذا الباب الشاعر منصف المزغنّي (عناقيد الفرح الخاوي) والشاعر منصف الوهايبي (ألواح)و الشاعر محمد العوني(مملكة القرنفل) والشاعر الصغير أولاد أحمد (نشيد الأيّام الستة) والشاعر محمد الغزي(كتاب الماء كتاب الجمر). وقد اكتفيتُ بهذه الأسماء لأنّها نشرت كتبها هذه في دار النشر ذاتها نقصد دار ديميتير .لعلّ الشاعر سوف عبيد هو أكثر هؤلاء الشعراء مغامرة على مستوى المغامرة الكتابية فقد ارتمى في التجريب منذ البدايات وأخلص في رسم ملامح تجربة شعريّة قطعت مع القصيدة العربية التقليديّة قطعا مميّزا فجاءت قصائده (في هذه المجموعة) صنيعة جديدة لفتت إليه الأنظار وشكّلت انعطافة مهمّة في الشعر العربي انقسم الرأي حولها بين معجب مادح لمنجزها وبين رافض لجرأتها على المقدّس من تراثنا ، وقد كان سوف عبيد واعيا تمام الوعي بما يكتبُ ومدافعاً شرسا عن توجّهه الذي اختار ورفاقه ولم يخل شعره من الدّفاع عن نفسه بأساليب مختلفة ، تصرّح حينا وتضمر حينا ولكنّها تظهر أنّ الرّجل كان له رؤى جديدة في الأشكال الشعريّة ومشروعا واضح المعالم يحاول بناءه كتاباً بعد كتاب ونصًّا بعد نصّ .

يقول في قصيدته (الزورق أكبر من البحر)

« طوبى ..

طوبى للبدلات ما تلطّخت

إلاّ بالحبر

وما علقت إلاّ بذؤابة شعر
وما امتدّت إلاّ لتلقى الأحبّة بالسّلام!
طوبى سيّدي للصّدر الرّحب
قد حوى ما حوى
قد حوى واحة
وزوجي حمام
في الفضاء حلّقا، حلّقا
فابسط راحتك مباركة
على السّباخ والبراري
جبرا وحرثا... وبدرا
ثم اسقها من مقلتيك
بازغة نوارة الملح
من كلّ جرح
إذن
خذ نفسا سيّدي...و تراوح
واصمت هنيهة...هنا... يافتى
صامت ... شامخ
مثقل بالرّؤى
نخل أنت
وعراجينك رطبة خضراء
ألاسرّح عينيك لترى
قمرا لا سماء
شكرا لا مدى
سمكا ليس في الماء
مطرا كالبكاء

...
لا ظل – لا حبل– لا ماء
تصل، لا تصل
سر لا تخف
هل أحد ربّت على الكتف
هل أحد يأخذ باليد
سيّدي طريق دون رفيق
ترى ما ترى؟
ترى طيرا بجناح واحد
حلّق في السحاب
تعب على أرق على سفر
يسقط لا يسقط
ربما ربما

بهذا الوعي الحاد يدخل الشاعر قصيدته فإذا بها تتحوّل إلى بيان للكتابة والحياة يرفعه في وجه معارضيه وفي وجه العالم من حوله ، بيانٍ واضح البنود

سأنطلق من هذا الفراغ الذي أمامي من أجل أن أزرعه شعرا جديدا لا يشبه الشعر برؤى جديدة

(مثقل بالرّؤى
نخلٌ أنت
وعراجينك رطبة خضراء)

وهو يعلم أنّه وحيدٌ في معركته تلك لا من يسانده فيها إلا ذاته المحمّلة بالحلم

(هل أحد ربّت على الكتف
هل أحد أخذ باليد

سيّدي
طريق دون رفيق!

بهذه الرّوح الرافضة والتائقة إلى كتابة جديدة يباشر الشاعر قصيدته ويحنو عليها يهدهدها ويطعمها بخيالاته وآماله وبقراءاته من الشعر الأوروبي خاصّة ولكن بكثير من التثبّت والتمحيص والبحث عن أساليب لغوية جديدة تقول الكائن الذي يسكنه بركان من البنى الفكرية المختلفة .

إننا أمام تجربة شعرية مختلفة ومتفرّدة ، لم تغيّرها السنوات ،بل زادت في شحذها وتعميقها وبناء ملامحها وإبراز خصوصياتها المتفرّدة ولكنها تجربة متروكة على عواهنها فلم تحض بالمتابعة النقدية الملائمة ولم تتجرّأ عليها الأقلام المتابعة إلاّ ملامسة وملاطفة فظلت بكرا الا اليوم ، ولعلّ جدّتها والقطيعة التي أحدثتها مع أخيّاتها في تونس وخارجها من التجارب الشعرية هو ما تركها في معزل عن الدرس والتساؤل.

ولكن سوف عبيد يمضي دائما في ذات الطريق
الذين جلسوا هنا
الذين يجلسون هناك
زجاج
دخان
كلام
لكن
من ستثبت بصماته
بعد مسح الطاولة؟

أسئلة الكتابة

سُوف عبيد

تحية وفاء إلى معلّمي الأوّل ـ سيّدي المنّوبي ـ المحترم الذي علّمني الحروف والأعداد بالمدرسة الِابتدائية بضاحية بمقرين جنوب العاصمة تونس سنة 1958

*

دائما يخالجني شعور الحنين إلى البادية بما تمثله من فضاء شاسع على مدى البصر وقيم إنسانية باتت نادرة ...واحسرتاه على ذلك الجنوب الذي أمسى جنوبا آخر لا صلة له أو تكاد بما عرفته فيه
أنا عرفت في طفولتي قيمة قطرة الماء وعرفت مذاق الخبز من الفرن بأصابع أمّي التي كان غناؤها سنفونيات عذبة على إيقاع دوران الرّحى ورأسي يتوسّد ركبتها ونحن في غار حوشنا القديم

أنا من جيل تجلّى وعيه على آخر وقائع النّضال للتحرّر من الِاستعمار الفرنسي وإنّ دويّ المدافع الفرنسية وهي تدكّ مواقع الثوّار في الأودية وفي ـ غارالجاني ـ و ـ أقْري ـ ما يزال صداها في مسمعي إلى اليوم وقبيل معركة ـ رمادة ـ بالجنوب التونسي كنت برفقة الصّبيان نجمع المؤونة والقِرب ونودّع الأقارب المتطوعين ثم في سنة 1961 خرجنا متظاهرين في حرب بنزرت وصائحين ـ الجلاء... السلاح... الجلاء...السلاح... وما زلت أذكر الفرحة العارمة التي غمرتنا عند إعلان اِستقلال الجزائر ولن أنسى أبدًا ذلك اليوم المشهود الذي رافقت فيه والدي رحمه الله إلى بنزرت في

أكتوبر 1963عندما شاهدت عن قرب موكب الزعماء ـ بورقيبة وجمال عبد الناصر وأحمد بن بلّة ووليّ العهد الليبي ـ
ولكن ما كادت سنة1967 تنتصف حتّى سادت في تونس وفي أغلب البلدان العربية وحتّى في الشّرق الأقصى وأوروبا وأمريكا حيرة حادّة اِستطاعت أن ترُجَّ كثيرا من الثّوابت بسبب التّأثير المباشر والحادّ للأزمات الّتي وقعت وقتذاك: فمِن هزيمة حرب جوان 1967 إلى حرب فيتنام ومن أصداء الثّورة الثقافيّة في الصّين إلى أحداث ماي 1968 في فرنسا وإلى حركات التحرّر العارمة في أمريكا وإفريقيا تلك الّتي كانت كالسّيل العارم أو كالنّار تشبّ في اليابس من الأغصان وفي ما تهاوى من الجذوع واِنشرخ من الأغصان وفي ما تناثر من الأوراق

❋

بينما نحن في درس العربية مع الأستاذ سيدي البشير العريبي بمعهد الصّادقية إذ تناهت إلى سَمعنا أصوات جَلبة فأغلق الأستاذ الباب ولكن سرعان ما اِقتحمت جماعة من التلاميذ مع شّبان آخرين القسم صارخين ـ فلسطين !! فلسطين !! ـ وطلبوا منّا المغادرة والخروج معهم للتّنديد بإسرائيل ، كان ذلك يوم 5 أو 6 جوان سنة 1967عندما اِنطلقت الهَبّةُ مع تلاميذ المعاهد المجاورة بقيادة طلبة كلية الآداب فسلكنا مُستنفِرين الناس أسواقَ المدينة العتيقة المحيطة بجامع الزيتونة حتى اِلتقت الجموع عند باب البحر حيث ـ وقتذاك ـ مقرّات بعض السّفارات الأوروبية والمركز الثقافي الأمريكي فهشّمت الجموع ما هشّمت وأحرقت ما أحرقت ولم يصدّها في آخر المساء إلا نفر قليل من الحرس الوطني المعزّز ببعض عمّال الميناء والشركات العامة حاملين هراوات يهشّون به علينا في الهواء ولكن نلنا منها بعد ذلك في التحرّكات الجامعية

المختلفة ما ناله طبل العيد، ثم بعد يوم أو يومين من تلك الأحداث كنتُ مع الواقفين على جنبات الطرقات نُودّع فِرق الجيش التونسي بالهتافات وبعُلب الأجبان والسّردين والشكلاطة أيضا وكان في ظننا أنه سيشارك في الحرب لتحرير فلسطين غير أنه ما كاد يصل إلى الحدود حتى قُضي الأمر وحلّت الهزيمة النكراء فلم يصدّقها حينذاك أغلب الناس الذين كانوا يستمعون إلى بعض الإذاعات ذات الحماسة الجوفاء والبلاغات الكاذب

في ظروف تلك الأحداث العربية الأليمة وفي خضمّ اِحتجاجات الشباب في العالم ضدّ حرب الفتنام وضدّ الميز العنصري في جنوب إفريقيا ومع بروز الحركات التحررية في شتّى أنحاء العالم تنامى لديّ الإِقتناع بضرورة تجاوز السائد من الأنظمة والأحزاب والنظريات الجاهزة فقد أثبت الواقع فشلها وخواءها من خلال عديد التجارب التي لم تخلّف في بلدانها شرقا وغربا إلا الإِستبداد والقهر والفقر وراح ضحيتها عديد الشعوب فاِنبريتُ أبحث عن الجديد المنشود وقد طلبته في الشّعر لذلك كنت من الفاعلين في ظهور جماعة ـ شعراء الرّيح الإبداعية ـ التي خالفت جماعة شعراء القيروان ذات الأبعاد التراثية والقومية العربية وجماعة المنحى الواقعي ذات المنطلقات الإِشتراكية وذلك بمناسبة ملتقى الشعر التونسي الذي اِنعقد بالمركز الثقافي بالحمامات سنة 1983 وقد عبّر شعراء ـ الرّيح الإبداعية ـ عن رفضهم للقوالب الإديولوجية في تلك السنوات التي شهدت بعدئذ اِنهيار الأنظمة القائمة فيها على الأحزاب المستبدّة... لقد كان اِستشرافنا صحيحا

فلم تمض إلا سنوات قليلة بعد ملتقى الحمامات للشّعر حتّى تمّ إبعاد بورقيبة عن الحكم وتولّي بن على مقاليد البلاد فعشنا على إثر ذلك فترة وردية من حرية التعبير والتنظيم إذ اِزدهرت الحركة

الثقافية في مختلف الجمعيات ودور الثقافة والمهرجانات وفي شتّى الجهات حتى النائية منها وفي تلك الطفرة من الأنشطة ترشّحتُ لعضوية الهيئة المديرة لِاتحاد الكتّاب التونسيين بِاقتراح من الأديب محمد العروسي المطوي فتحصّلت على أكثر الأصوات ونلت بالِانتخاب أيضا مسؤولية الأمين العام وكانت تلك الهيئة تضمّ الأدباء محمد العروسي المطوي رئيسا والميداني بن صالح نائبا له والهاشمي بلوزة أمين المال وضمّت أيضا الأدباء أبا زيان السعدي وجلول عزونة وسمير العيادي وعبد الحميد خريف ونور الدين بن بلقاسم والتابعي الأخضر والطيب الفقيه وقد عمِلت تلك الهيئة خاصة على تنشيط النوادي في مقر الِاتحاد وعلى اِنتظام إصدار مجلة ـ المسار ـ وعلى فتح الفروع في الجهات التي يتوفّر فيها الحدّ الأدنى من الأعضاء وعلى المشاركة في اللجان الخاصة بالكتاب والسّينما والمسرح ضمن وزارة الثقافة وقد جعلنا هدفنا الأكبر هو اِستضافة مؤتمر الِاتحاد العام للأدباء العرب ومهرجان الشعر العربي بتونس وقد ضمّ اِتحاد الكتّاب التونسيين وقتذاك أغلبية الأدباء والشعراء على اِختلاف مراجعهم الفكرية والأدبية وعلى تنوّع ألوانهم السياسية وتوالي أجيالهم ممّا أتاح لي التعرّف على الأدباء التونسيين وربط صداقات مع الكثير منهم وفي ذلك السّياق من النّشاط الزّاخر ومن بينه اِنعقاد مؤتمر الأدباء العرب ونيل تونس رئاسته في شخص الأديب محمد العروسي المطوي ثمّ تنظيم الملتقى الأوّل للشعراء العرب جاءتني دعوة من رئاسة الجمهورية لحضور موكب اليوم الوطني للثقافة الذي اِعتبرناه حينذاك مكسبا للثقافة والمثقّفين ونحن نعيش غمرة حركة النشر واللقاءات الأدبية بعد سنوات عديدة من الكبت والتهميش التي لم يستفد منها إلا الأدباء والمثقّفون المُوالون للنّظام ولكن لم أكن أدري وأنا أدخل

قصر قرطاج ثمّ وأنا أغادره بعد أن صافح بن علي الجميع ـ أنّ حليمة ستعود بعد سنوات إلى عادتها القديمة فقد أضحى حول نظام ـ العهد الجديد ـ زمرةٌ كبيرة من المثقفين والأدباء والفنانين الموالين هي التي اِستفادت من مجالات وزارة الثقافة ودعمها واِحتكرت مواردها وأنشطتها فلم تُبق لنا إلا النّزر القليل الذي لا يفي بتحقيق برامجنا ضمن بعض الجمعيات والنوادي الثقافية تلك التي سَنة بعد سنة بدأت تنغلق على عدد قليل من المنتسبين والروّاد وصارت برامجها تسير على إيقاع الجوقة الرّسمية شأن جميع الأنشطة الثقافية وغيرها في بقية البلدان العربية التي زرت الكثير منها فاِستنتجتُ أن مسألة اِستقلالية المثقف العربي عن السلطة هي أمر نسبيّ جدا وحتى بعض المثقفين والأدباء الذين تمكنوا من الإقامة في البلدان الغربية نجدهم موالين لهذه الجهة أو تلك سواء كانت منظمات وجمعيات أو لوبيّات وغيرها فليس من باب الخير المحض والمحبّة الصّافية للثقافة تحتضنهم تلك الدول وتدعمهم وتمنحهم الاِمتيازات والجوائز

*

كانت مرحلة اِنتسابي إلى الهيئة المديرة لاِتحاد الكتّاب التونسيين في مناسبتين الأولى في فترة رئاسة الأديب محمد العروسي المطوي والثانية في فترة رئاسة الشاعر الميداني بن صالح قد أتاحت لي الفرصة لمعرفة أحوال الأدباء والمثقفين التونسيين والعرب فوقفتُ على أمزجتهم وعلى بعض تفاصيل سلوكياتهم لذلك اِستنتجتُ أنّه من الأحسن بالنسبة للكثير منهم أن نقرأ لهم ولا نعرفهم عن كثب فعدد هائل من الأدباء والشّعراء والمثقّفين يكتبون ويصرّحون بعكس ما يفعلون لأن غايتهم تتمثّل في كسب

المال والشّهرة أونيل الحظوة والمنافع أمّا القِيمُ والمبادئ فإنهّا لا تبدو لديهم إلا في نصوصهم ... كلام... كلام !...
الزّمن كفيل وحده بوضع كل أديب وشاعر في مقامه الجدير به

❋

كان من الممكن أن أنخرط في سياق السائد من الشعر الّذي كان يتراوح بين معاني الغزل والمديح والعنتريّات وبين معاني الرثاء والبكاء وجلد الذات، وكان من الممكن أن أباشر الكتابة بالعامّية مُتمثّلا مقولة أنّها أقرب إلى الجماهير وأسهل في التّداول والإنتشار، بل كان بوسعي أن أنخرط حتى في الكتابة باللّغة الفرنسية بإعتبار أنّها اللّغة الثانية في تونس والّتي يمكن بها أن أتواصل مع مدى أوسع في العالم
ولقد بدأتُ فعلا في الكتابة بتلك اللّغة ولكنّني إكتشفت أنّ في العملية
إنسلاخًا وإنبتاتا فتراجعت ولم أنخرط في الكتابة بالعامّية التونسيّة عند تلك المرحلة وذلك لسببين اثنين أوّلهما أنّني علمت أنّها كانت ضمن سياق الدعوة إلى القضاء على الهويّة الوطنيّة ذات الأبعاد العربية، وثانيهما عدم إمتلاكي لمفردات قاموسها الكبير وبالتالي عدم قدرتي على الإحاطة بها والتّعبير عمّا كان يخالج نفسي من المعاني الغزيرة والعميقة بتلك اللغة
ورغم ذلك فإنّي أرى أن الأدب العامّي شامل لرصيد تراثي غنيّ إنصهرت فيه مختلف المكوّنات التاريخية تلك التي تتجلّى بوضوح من خلال الأمثال والحِكم والأزجال والأغاني والحكايات والخرافات والألغاز والنوادر وغيرها وإنّ النّهل من هذه التعبيرات إنّما هو إثراء للأدب العربيّ بل هو رافد مهمّ من روافد تجديده وتنوّعه. وقد لاحظت أنّه عندما تصبح الدّعوة إلى الإستغناء عن

العربية الفصحى وإبدالها بالدّارجة كتابة وتداولا فإنّ الأمر عندئذ ينقلب إلى قضايا تتعلّق بمكوّنات الشخصيّة الوطنيّة الّتي أعتبر أنّ اللغة العربيّة هي اللّبنة الأساسية في بنائها وتماسكها وأنا لست مستعدا للمساهمة في هذا المشروع الخطير على الكيان الوطني الذي تمتدّ جذوره الثقافية والحضارية عميقا في التاريخ إلى ما قبل القيروان وقرطاج

❋

إلى اليوم لم أصادف كتابا في تاريخ الأدب التونسي يتناول بالجمع أو حتّى بالإشارة إلى الأدب الذي كان في هذه الرّبوع قبل الحضور العربي الإسلامي في إفريقية ...إذن المسألة تحتاج إلى بسط وتمحيص.

أنا أرى أن البحث في ذلك الأدب التونسي قبل الحضور الثقافي العربي أمر مهمّ الآن بعد أن زالت مخاطر الِاهتمام به وحيث ترسخت مفاهيم الِانتماء الوطني التونسي عبر منطلقات المغرب العربي والتجذّر في الثقافة العربية ضمن البعدين المتوسطي والإفريقي وصولا إلى ملامسة الثقافات الأجنبية الأخرى غير أن ذلك لا ينبغي ان يشطب من تاريخنا الحضاري إسهامات بلادنا قبل التعريب فهذه المسألة كانت تثير تحفظ بعض الذين كانوا يرون أن تاريخ تونس يبدأ مع تأسيس القيروان أما البحث في ما قبل ذلك فهو ضرب من الدعوة إلى الإقليمية والِانعزالية والمحلية.

إن كتب التاريخ قد حوت نصوصا متنوعة باللغة اللاتينية واليونانية قد ترجم بعضها إلى اللغة الفرنسية لذلك يمكن تعريب هذه النصوص والتعريف بها كمرحلة أساسية من تاريخ الأدب التونسي القديم الذي أراد الأديب محمد البشروش في الأربعينيات من هذا القرن أن يبدأ به مشروعه الضخم في كتابة تاريخ الأدب التونسي

ذلك المشروع الذي ظل دون تحقيق غير أن الباحث والمؤرخ محمد حسين فنطر قد أكد في بحوث عديدة على الابداع الثقافي التونسي في العصور الغابرة قبل الفتح من ذلك توصّل إلى إثبات شهادات أدبية تتمثّل في الكتب المتنوعة التي تهم مواضيع الفلسفة والخطابة والشعر والقصة والحقوق أيضا قد صنّفها أفارقة كانوا فخورين بإنتمائهم إلى هذه الأرض الطيبة وأعربوا عن هذا الشعور النبيل بصريح العبارة فهذا أَبُلُيّوس قد تعلّم ودرّس في جامعة قرطاج وذاع صيته في أركان الإمبراطورية الرومانية وكانت له اذ ذاك الكلمة الأولى في دنيا الفلسفة والأدب فقد كان يحسن لغة اليونان ولغة الرومان وكان يقول مفتخرا بانتسابه إلى إفريقية « إني جدالي نوميدي» وجدالي نسبة لقبائل جدالة التي كانت تسكن بجنوب البلاد وقال نوميدي نسبة إلى نوميديا مأنه يؤمن بوحدة القبائل الافريقية من حيث الحضارة والتاريخ.

ويؤكد الدكتور محمد حسين فنطر ان الشاعر فُولُورُوس الذي وُلد بقرطاج وتعلّم بها ولمّا بلغ اشدّه سافر إلى روما حتّى شارك في مسابقة شعرية نظمت تحت إشراف الإمبراطور دُمسّيُوس الذي تبوّأ عرش الأباطرة من سنة 81 إلى سنة 96 بعد المسيح وتفوّق الشاعر ـ فلُوروس ـ بشهادة لجنة التحكيم لكن القيصر سحب منه الجائزة مشيرا أنّه من العار أن يفوز بها افريقيّ على حساب الرومان فما كان من فلوروس إلا أن قال بعد الصدمة « إنّها كادت أن تذهب عقله!»

فالتراث التونسي زاخر قبل الفتح ومنه التراث الأدبي الذي آن الأوان ان نتعرف عليه عند استعراضنا لمسيرة الأدب في بلادنا لعله يكون رافدا آخر يميز التجربة الأدبية التونسية بما يوحي منه من أبعاد وتضمينات ذلك أن الأدب العربي يزداد ثراء بتعدّد الأمصار والعصور.

❋

إن مرجعيّة الشّاعر الحديث اليوم ما عادت تقتصر كما كانت على الشّعر القديم المبثوث في المتون والمختارات والمصنّفات من الدواوين تلك الّتي يقتصر الإبداع الحقيقيّ فيها على بعض القصائد فحسب، بل صارت تلك المرجعيّة تستند أيضا إلى عديد النّصوص الأخرى في الآداب القديمة والمعاصرة تلك الّتي اِطّلعنا عليها فاِكتشفنا فيها آفاقا وأنماطا أخرى من الإبداع فحاولنا أن نقتبس من تلك المعالم الإنسانيّة إلى شعرنا الحديث من دون نسخ أو نقل مباشر فالآداب تتلاقح وتتمازج وتتحاكى وتتطوّر ليس بفعل التّرجمة والاِطّلاع فقط وإنّما بسبب العوامل الاِجتماعيّة والحضاريّة أيضا. فالجيل الّذي كتب قصائده على نمط التّفعيلة ـ الشّعر الحرّ ـ وخرج على نمطيّة البحور والقوافي عند منتصف القرن العشرين قد عبّر بذلك عن خروجه على نسق المجتمع العربيّ القائم على التّقاليد والقيم تلك الّتي تزحزحت بسبب التطوّر الكبير في حياتها الّذي استطاع أن يؤثّر في كلّ شيء فيها من تخطيط المدينة ومعمارها، إلى فضاء البيت ومختلف العلاقات بين ذويه، ومن أدوات الكتابة والقراءة، إلى أدوات الفلاحة والطبخ، ومن الأثاث واللّباس، إلى الأفكار والإحساس

إنّ قصيدة جيل النصف الثاني من القرن العشرين عبّرت عن ذلك التغيير والشّرخ الكبير الّذي تمرّ به المجتمعات العربيّة بفعل دوافعه الاِجتماعيّة والتاريخيّة العديدة

❋

أمّا الجيل الموالي الّذي تشكّل وعيُه في سنوات الثّلث الأخير من القرن العشرين فقد عاش فترة الاِنهيار والانكسار والدّمار على المستوى المحلّي والقومي والعالمي وعلى مستوى الإديولوجيات

والحزبي وإن حدث اِنهيار الاتحاد السوفياتي وهدم جدار برلين وتوقيع اِتفاقية كامب دافيد والاِعتراف بالكيان الصهيوني من طرف بعض الدول العربية والحروب في ما بينها واِنتشار وسائل الاِتصال المتطوّرة واِكتساح النظام الاِقتصادي العالمي الجديد بحيث أضحى العالم قرية صغيرة وغيرها من العوامل كلها زعزعت آخر القناعات الثابتة وطرحت الأسئلة الحارقة فمضى الشاعر في غضون تلك السنوات يبني ويؤسّس على غير ما وجد من النصوص لعلّه يجد الخلاص فرأيناه يَنشُد الجديد والغريب أحيانا ليس في الشّعر والآداب فحسب وإنّما في شتّى الفنون وقد اِستند على شرعية التّجديد والبحث والتجريب تلك الّتي ترنو إلى إنجاز إبداع يمثّل هواجسه ويعبّر عن مشاغله وأحلامه...ذلك هو الأمل والمبتغى، فحسب كلّ جيل أن يثبت بصماته

❋

لقد قلتُ مرّة إنّ المحاولة في التّجديد أفضل من النّجاح في التّقليد وإنّ إيماني بهذه المقولة كان نتيجة المناخ الثّقافي الّذي كان سائدا سنة 1970 تلك السنة الّتي بدأت فيها النّشر بصفة جديّة مواكبًا عن قرب مقولات الحركات الفكريّة والسياسيّة التي كانت قائمة على قدم وساق في تلك السنوات سواء في الجامعة أو في الشارع والمجتمع أو في الأحداث العربيّة والعالميّة حيث كنت متابعا لها وقارئا نهما لمختلف أطروحاتها وأدبيّاتها وكنت أرفض فيها الاِنضباط والتسلّط إِذْ رأيت أنّ التنوّع والاِختلاف ثراءٌ في المعرفة وزادٌ لمَلء الوطاب وغِنًى للفكر والفنّ وفُسحة للرّوح فلقد كنت أحبّ أبا ذر الغفاري وغيفارا معًا وكنت معجبا بغاندي وحنّبعل كِليْهما

أنا لست منظّرا في الفكر والإديولوجيا ولا ملتزما في أيّ حزب ولكنّني رأيت أنّ التاريخ الإنسانيّ أكبر وأشمل من كلّ النّظريّات فما على الفلسطينيين إلا أن يتوحّدوا ضمن جبهة وطنية تضم كافة المنظمات والفصائل مثلما فعلته تونس والجزائر والمغرب ضد الإِستعمار الفرنسي حيث توحّدت في خمسينيات القرن العشرين في هذه البلدان جميع التعبيرات السياسية والنقابية والاجتماعية مطالبة بالإِستقلال وعملت على المستوى السياسي مع الكفاح المسلح ومساندة القوى التحررية في العالم فحققت بعد النضال والتضحيات استقلالها ....أمّا والحالة على ما هُم عليه من إِنقسامات وخلافات وصراعات حتّى دموية بين الأشفاء الفلسطنيين إضافة إلى الحروب العربية بين العرب واستقوائهم يالأجانب...فإن الأسوأ قادم.. أنا تعبت من قصائد الجراح العربية ومن قراءة البيانات والاستماع إلى الخطب ورغم ذلك سنكتب ونرفع صوتنا عاليا فالكلمة مثل فوهة البندقية ومن بداياتي الأولى قرأت في اللغة الفرنسية وقبل أن تكون نصوصهم معرّبة قصائد شعراء عبّروا عن توقهم للحريّة معبّرين عن طموحات شعويهم في الإِنعتاق مثل لوركا وناظم حكمت وأراغون وبابلو نيرودا وسنغور الشّعر عندي لا يَحُدّه معنى ولا شكلٌ وهو أوسعُ من التفعيلات والبحور وأشمل من البلاغة والبيان وما اللغة إلا تعبيرة من تعبيراته العديدة والمتنوعة وقد تضيق به أحيانا... فالرّسم مثلا شِعر بالألوان والشّعر رسم بالكلمات والموسيقى شعر بالأصوات والرقص شعر بالحركات فالفنون تتداخل وتتمازج وقد تتضاءل الحدود بينها فما بالك بتلاشي الحدود أحيانا
بين مختلف الأنواع ضمن الفنّ الواحد

أعتبر نفسي محظوظا إذ أنّي أدركت حتّى الشعراء الذين عاصروا أبا القاسم الشّابي ومنهم الشّاعر مصطفى خريف الذي عندما صدر ديوانه – شوق ذوق – في منتصف ستينيات القرن العشرين كان حدثا أدبيا بارزا وقد اِستعرضه لنا في درس العروض أستاذي الصّادق بن عمران بمعهد الصادقية

وأذكر أنه قرأ لنا منه عديد القصائد وقد شدّت اِنتباهي قصيدتان هما – حورية الموج – التي راوح فيها بين التفعيلات والصور الشعرية حتى لكأنها سنفونية وقصيدة – بين جبل بحر – تلك التي وردت على غير النسق العروضي ومن وقتها خاصة عرفت أن الشعر يكون على غير البحور والتفعيلات ثم اكتشفت بعد أن اقتنيت الديوان من غد أنه يتضمن قصائد من الشعر الشعبي أيضا

لقد كان ديوان مصطفى خريف – شوق وذوق – نقطة اِنطلاق أولى كشفت لي باكرا أن الشعر يتمثل في أنواع مختلفة من الأشكال الفنية التي لا اعتقد أنها المحدّد الوحيد والأساسي للشّعر الذي من أسسه أيضا الصّورة والموضوع والإحساس ووجهة النّظر أو الموقف الإنساني

لذلك لا بأس بهذه المناسبة من ملاحظة أراها مهمّة تلك التي تخصّ مصطلحات أشكال الشعر العربي الرائج في هذا العهد فأقترح أن يكون على أربعة أنواع وهي

ــ شعر البحر أو قصيدة البحر وهي التي تلتزم بالبحور العروضية

ــ شعر التفعيلة أو قصيدة التفعيلة وهي التي تجعل التفعيلة العروضية أساسا لها

ــ الشعر المتحرّر وهي القصيدة المتحرّرة من البحر والتفعيلة

ــ شعر الومضة أو القصيدة التي تعتمد اللمح والإيجاز والتركيز

❋

أحب السينما لأنها جامعة لفنون كثيرة فهي الصورة والسرد والموسيقى بحيث أن السينما شرفات مفتوحة على الدنيا وعلى الناس فهي جامعة للفنون وللمعارف أيضا ناهيك بالأفلام الوثائقية في شتى الميادين ولكن الظروف لم تسمح لي بالانخراط في مجال السينما فأنا أكتفي بالمتابعة وقد توحي لي بعض المشاهد السينمائية ببعض الخواطر الشعرية ومن المصادفات العجيبة أن أحد تلاميذي درس الإخراج السينمائي وجاءني يوما ليقترح أن أقوم بدور أساسي في فلم فاِعتذرت له بكل أسف

من ناحية أخرى كان بإمكاني مواصلة انخراطي في سلك ضباط الطيران بالجيش الوطني التونسي عندما تخرجت من الأكاديمية العسكرية وذلك عندما دعيت بعد تخرجي من كلية الآداب بواجب أداء الخدمة العسكرية

وكان بإمكاني أيضا عدم الانخراط في سلك التعليم وحمل المحفظة والاهتمام بتجارة مواد البناء ودخول عالم المقاولات من الباب الكبير فلقد كان الوالد اكتسب الخبرة في هذا المجال بعد أن اِحترف صناعة الفطائر والحلويات التقليدية التونسية

كان بوسعي أيضا أن أهاجر إلى فرنسا حيث هناك كثير من أقاربي ومعارف والدي

نعم في شبابي كانت أمامي اِختيارات عديدة وكان النجاح فيها ممكنا غير أني اِخترت المحفظة والقصيدة إذْ للشّعر لذائذ عديدة أولها لذة قراءته أو سماعه وما أمتع لحظات انبجاس إلهامه وأنت تحاول الإمساك بجناح من أجنحة الفكرة وهي ترفرف حواليك في كل آن ومكان مغرية حينا متمنّعة حينا وبين هذا وذاك أنت صابر لقنصها حتى إذا ما استسلمت منقادة وأرخت لك العنان تقبل عليها

بحذر ولطف فتبدأ حينها في نسجها حرفا حرفا وكلمة كلمة وتظل معها
كأنك تنسج من مختلف الخيوط والألوان والأشكال زربية من حرير أو كأنك تهيّء َمن أرض بُور بستانا ليستحيل حدائق منسّقةً جميلةً وجناتٍ يانعةَ الثمار وارفة الظلال
ثمّة قصائد عندي ما مسكتُها بحرف ولا أسكنتها ورقةً فلا عجب أن كتبتُ في السّنوات الأخيرة بعض الأشعار العموديّة ربّما بسبب الحنين إلى الماضي أو بحثا عن طرافة القديم في خضمّ الجديد لِمَ لا ؟؟ ذلك أنّ الشّعر عندي :لا يُحدّ بشكل ولا يُعدّ بنوع ولا يقتصر على موضوع بل إنّ القصيدة يكتبها قارئها وسامعها أيضا...!؟

قلمُ واللّسانُ ذَهبْ ذكرياتِي بتِبْرٍ كَتَبْ
أينُ منهُ يَراعُ الصِّبَا كمْ بَرَيْتُ دَقيقَ القَصبْ
ورَسَمتُ الحُروفَ على لوحةٍ مِنْ صَقِيلِ الخَشَبْ
ودواةٍ كَلَيْلٍ سَجَى لونُها البحرُ فِيهِا اِنْسَكبْ
ومِنَ الطّينِ قَوَّرتُهَا حِبْرُهَا سَاطعٌ كالشُّهُبْ
تَحتَ قِنديلِ زَيتٍ بَدَا راقصًا فِي ضِياءِ للّهَبْ
ودُخانُ الشَّذى عَبِقٌ مَائِسٌ طيفُهُ كاَلْخَبَبْ
فِي الشّتاءِ أنيسٌ لنَا بِخَيالِ حَكايَا العَجَبْ
سَنَواتٌ مَضَى عَهدُهَا مَا ألذَّ دِثَارَ الكُتُبْ
لمْ نَجِدْ فِي الصِّبَا غيرَهُ فَلبِسْنَا ردَاءَ الأدَبْ
وبِرغْمِ البِلَى لا نبَدِّلهُ لوْ بِأعْلَى الرُّتَبْ
ومَدَى لعُمرِ نَذْكُرُهُ فَلقَدْ كانَ أوَّلَ حُبْ

سُوف عبيد

الفهرس

سوف عبيد الشاعر الناثر 3

محمد المي

ملاحظات حول خصائص الشّعر التّونسي الحديث في «الضّفّة الثّالثة .
قبسات من الشّعر التّونسي والعربي» للشّاعر والنّاقد سوف عبيد 5

بوراوي بعرون

حضور المرأة في أعمال سوف عبيد الشّعريّة..... 13

سونيا عبد اللطيف

المجموعة الشعرية : الأرض عطشى للشاعر سوف عبيد جمالية
الالتقاط وشعرية الانتماء 35

منير الوسلاتي

محاولة للبحث في تجربة للشاعر التونسي سوف عبيد الإبداعية ... 47

كوثر بلعابي

هل يكشف «ديوان سوف عبيد» عن حياته وتفاصيلها ؟؟؟ سؤال وضعه
وحاول الإجابة عليه 81

محمد بن رجب

شهادة ســوف عبيد سادن الشعر التونسي وأخو الشعراء 93

صلاح الدين الحمادي

سوف عبيد... شعرية التفاصيل والحنين 97

نورالدين بالطيب

عندي حكاية سأنشدها شعرًا نوّارة الملح للشاعر سوف عبيد ... 101
حافظ محفوظ

أسئلة الكتابة 111
سُوف عبيد